UNIVERSAL
LIBRARY
OU_234890
UNIVERSAL
LIBRARY

المذهب السلوكي في السيكولوجية الحديثة

للاستاذ يعقوب فام

وبه

مقدمة للاستاذ سلامة موسى

طبع بمطبعة المجلة الجديدة
شارع الملكة نازلى ١٤٩
بالقاهرة

المذاهب السيكلوجية الحديثة

للاستاذ سلامة موسى

فى عالم السيكلوجية الحديثة ثلاثة مذاهب أو مدارس هى :

١ — مدرسة التحليل النفسى وزعماؤها فرود وادلر ويونج

١ — مدرسة السلوكية وزعيمها وطسن

١ — مدرسة جيشتالت وزعيمها كوهلر

وهى جميعها تحاول أن تنزل على الاساليب العلمية من البحث النزيه . ولكن أحرصها على هذه الأساليب العلميةهو المدرسة السلوكية التى يرى القارىء فى هذا الكتاب الصغير ملخصاً واضحاً عن طريقتها وأغراضها

ويمكن القارىء الذى يرغب فى الوقوف على سيكلوجية التحليل النفسى أن يقرأ كتابى « العقل الباطن »

وللأسف لم يظهر فى العربية الى الان شىء عن سيكلوجية جيشتالت

وأنا محاول هنا أن أبين للقارىء مميزات هذه المدارس كل على حدتها . وقبل أن نبدأ فى ذلك يجب أن نقول أن المدرسة السلوكية لا يعتمد الا على التجربة الموضوعية دون الاختبار الذاتى . فهى تقول بأن نلاحظ الانسان وقت غضبه أو سروره وندون ما يحدث منه فى الحالتين ونقصر علمنا فى السيكلوجية على ذلك . أما ما نشعر به نحن وقت الغضب أو السرور فلا تأبه به هذه المدرسة . فما اختبرته أنا بنفسى عن نفسى ليس له قيمة علمية فى نظر الدكتور وطسن . وإنما هو يرى القيمة العلمية مقصورة على ما يشاهده من علامات الغضب أو السرور فى غيره . ولكن مدرسة التحليل النفسى تؤمن بالاختبار الشخصى

ولنبدأ الآن بشرح المميزات لكل من هذه المدارس

ترى مدرسة التحليل النفسى أن حياتنا الذهنية تبدو لنا فى حالتين

١ — حالة الوعي أو الوجدان أو الشعور حين ندرى ما نفعل وما نقول فنفكر عندئذ بعقلنا الظاهر

٢ — وأعظم مثال على تفكيرنا بالعقل الباطن هو الحلم الذى نراه فى النوم والخواطر

السائبة التى تجرى عفوا عندما نتراخى ، والكلام يهذى به المجنون وهو فى غيبوبة الجنون

أما مثال التفكير بالعقل الظاهر فهو الحديث الذى أحدثك به عن وعى وانتباه وتيقظ لما أقول . وهو يتضح فى الحوار والمناقشة . وإذا تأملنا حياتنا الذهنية الفينا تسعة أعشار التفكير تجرى بالعقل الباطن والعشر فقط يجرى بالعقل الظاهر . وهذا العقل الباطن هو مستودع ذكريات الطفولة ونوازع الشباب ونزعات النفس وهو لذلك يقرر أخلاقنا ومسلكنا فى الدنيا من حيث لا نشعر . وهو الذى يرفعنا إلى السماء بعبقرية سامية أو يدخلنا فى المارستان بجنون يستعصى شفاؤه الا بالمعالجة الطويلة . وهذه المعالجة لا تخرج عن أن تكون تحليلا للنفس وكشفاً للشخصية . وهذا العقل الباطن هو « شيطان » الشاعر الذى يلهمه المعانى ويزوده بالالفاظ وهو روح الامة التى تتضح فى ألحان غنائها وأساطير دياناتها وأحاديث أطفالها التى يحدثون بها قبل النوم

فهذه « النفس » الانسانية تنزع الى اشياء كثيرة فى هذه الدنيا ، تنزع الى التفوق والسيطرة والسيادة كما تنزع الى اشباع الشهوة الجنسية بل كما تنزع الى الرقى والخير . وهذه النوازع تستكن فيها ولا نكاد نشعر بها الا فى فترات لا نلاحظها عادة لاننا نكون فى غير وعينا اذ هى قد تقع لنا فى النوم او فى مايشبه النوم من غفوة الارتياح والاضطجاع . ففى هذه الفترات ينطلق العقل الباطن من رقابة العقل الظاهر ويكشف لنا عن حقيقة انفسنا فنرى عندئذ ان الخواطر تجرى سلسلة متواصلة من الشهوات الصريحة لتحقيق السيطرة او الحب الجنسى كأن نتخيل انفسنا فائزين قد حصلنا على الشخص الذى نحبه او الشىء الذى نشتهيه وقد نحلم بهذه الخواطر فى نومنا

والآن ماهى دلالة هذه الخواطر ؟ دلالتها أن فى النفس الانسانية نوازع نكبتها أو نكظمها مراعاة للظروف والبيئة والمركز الاجتماعى مادمنا فى وعى وشعور . فاذا نمنا أو غفونا انطلقت هذه الخواطر من قيودها وأوقفتنا على حقيقة أمانينا . ويحدث هذا أيضا فى الاستهواء الذى يقوم منامقام النوم . فاذا استهوينا شخصاً ما بالايحاء استطعنا أن نقف منه على أمانيه التى يخفيها عنا فى صحوه ويقظته . وحفلة الزار فى مصر تستهوى المرأة المصرية فينطلق عقلها الباطن ويعبر عن أغراضها ويدفعها الى حركات تؤدى أمانيها المكتومة . ولذلك فان حركاتها لا تخرج عن الدلالة

على شيئين احدهما تمثيل السيادة والثانى تمثيل الحب الجنسى . وبديهى ان تجرى خواطر المرأة المصرية المحجبة فى هذين الشيئين اللذين كثيراً ماتحرم منهما لظروف الحجاب الذى يحرمها أحيانا من اختيار من ترغب فى زواجه فتتزوج غيره ممن لاترغب فيه . ثم ان مركزها فى المنزل أمام زوجها هو من الضعة والخضوع بحيث يبعث فى عقلها الباطن الرغبة فى السيادة . وفى حفلة الزار تمثيل واضح للنزوع نحو الحب الجنسى أو السيادة

وحفلة الزار تبعثنا على التأمل . فان كبت النوازع النفسية يحدث لنا أحياناً أمراضاً عصبية كهذه التى تحدث للمرأة حين نعالجها بالزار . وأحيانا تستعيض هذه النوازع من غاياتها المعينة غايات أخرى من جنسها مع بعد عنها ينقص أو يزيد . كالمرأة ترغب فى الأمومة ولكن الظروف لاتؤاتيها فتربى القطط والكلاب ، وكالشاب يرغب فى السيادة والتغلب ولذة الشعور بالتفوق ولكن الظروف لاتؤاتيه فيعمد إلى الألعاب الرياضية أو ممارسة الفنون الجميلة أو المخاطرة بعمل ما

فزعماء مدرسة « التحليل النفسى » فرود وادلر ويونج يقولون بأن تسعة أعشار التفكير تجرى فى خفية لانشعر بها أى فى العقل الباطن . وان نوازع النفس تتضح فى خواطرنا وأحلامنا أكثر مما تتضح فى التفكير الواعى . واننا بكبت هذه النوازع نؤذى أنفسنا ونقع فى أمراض عصبية مختلفة . وليس معنى ذلك أن نستسلم لجميع عواطفنا ونفرج عنا بلا قيد ولا شرط . وانما معناه أن نخفف من القيود بعض التخفيف ثم نتسامى بنوازعنا النفسية فنمارس أعمالا من جنس هذه النوازع ولكنها ليست مضرة . كالشهوة الجنسية نتسامى بها الى ممارسة الفنون الجميلة والرياضة البدنية ونحو ذلك . بل هم يرون أن الكبت اذا خف أفاد لأنه يجمع فى النفس طاقة يمكن استغلالها فى أى عمل نافع . ثم هم يرون أن للطفولة أثراً كبيرا فى تكوين الميول والاخلاق . وهم هنا يتفقون مع واطسن فى مذهبه السلوكى . فان مانراه فى طفولتنا من اختبارات وما يقع لنا من تجارب يندس فى العقل الباطن ويبقى يؤثر فينا مدى حياتنا . كالطفل يشترى له أبوه بذلة عسكرية مزينة بأزرار مذهبة وأشرطة حمراء وسيف معلق فينشأ وفى نفسه ميل غامض الى العسكرية . أو كالطفلة تعجب بابيها فتنشأ وفى نفسها ان المثل الأعلى للرجولة يجب أن يشبه أباها فلا تحب من الشبان أحد يخالف هذا الانموذج الذى اندس فى عقلها الباطن

وقد أثبتت هذه السيكلوجية أن قوة الايحاء التى تحيط بنا كبيرة جداً . فنحن

نعمل ونسلك بايحاء الاصدقاء الذين نصادقهم والكتب التى نقرأها والاعلان الذى تمر به أعيننا . ويمكن أن نوحى إلى أنفسنا بالطراز الذى نريد أن تكون عليه شخصيتنا لأنه كما يفعل ايحاء الغير فينا كذلك يفعل ايحاؤنا فى أنفسنا ان صلاحا وان فساداً . فهى من هذه الناحية ترشدنا إلى قيمة الايحاء فى التربية

وأعظم مايعيب « التحليل النفسى » أننا نعتمد فيه على الاختبار الذاتى دون التجربة الموضوعية . ولكن يمكن الاعتذار عن ذلك بأن النفس الانسانية لا يسهل اجراء التجارب الموضوعية عليها كما تجرى على المواد الكيماوية . فهذا رجل نراه يقعد فى غرفة معينة فلا يلبث ربع ساعة وهو يفكر فيما يشبه الهدوء الخارجى حتى ينهض فيلقى بالكراسى الى الارض ويحطم الأثاث . فالقاء الكراسى وتحطيم الأثاث هما ثمرة اختبار ذاتى لايمكن أن نفهمهما إلا اذا سألناه وحللنا عواطفه والصورة التى مرت بذهنه ومازالت تستثيره وتهيج أعصابه . وهذا هو « التحليل النفسى » وهو الوسيلة الوحيدة التى نستطيع بها أن نعرف ذلك المركب أو تلك العقدة التى انعقدت فى نفسه فاثارته ومازالت تستثيره . ومتى وقف هو عليها انفرج الضيق الذى يعانيه واستحالت شراسته حلماً ووداعة . وقد وجد أن نحو ٧٥ فى المائة من المجانين لم يجنوا لمرض معين أتلف بعض أنسجتهم وانما لمركبات أو عقد ترجع الى ايحاءات وحوادث سابقة يمكن بالتحليل أن نكشف عنها كما أن هناك نقائص نفسية كالعشق الشاذ أو الكراهة لبعض الناس أو الاشياء ترجع الى ايحاءات سابقة . ويدلنا « التحليل النفسى » على أننا نستطيع ان نصوغ حياتنا فى القالب الذى نريده بما نوحيه الى أنفسنا ايحاء يعظم حتى يبلغ الاستهواء . بل نستطيع أن نسيطر على أجسامنا بأذهاننا فنجعل الجسم يخضع حتى فيما يخرج عن ارادتنا ، للخواطر والايحاءات التى تشتغل بها أذهاننا وتندس فى عقلنا الباطن يتؤثر أثرها فى الجسم . ونستطيع أن نفسر الثورات والانقلابات التى تحدث من الفرد والامة بما اندس فى كل منهما من ايحاءات سابقة مكتومة ثم فاضت فجأة كما يفيض الرجل الموتور الكاظم عندما ينهض ويحطم الكراسى فى الغرفة

أما وقد عرفنا ماذا يقصد من « التحليل النفسى » فلننظر الآن فيما يقصد من « السيكلوجية السلوكية » التى هى موضوع هذا الكتاب المختصر

تنكر « السلوكية » النفس والعقل الباطن والعقل ولا تعرف من وسائل التحقيق

ذلك « الاختبار الشخصى » الذى تعترف به جيشتالت أو التحليل النفسى

فعند الدكتور واطسن القائل بالسلوكية أن الانسان يفكر بجسمه كله . وان التفكير حركة فى عضلات الحنجرة . أى أنه كلام صامت . وان سبيل التحقيق يجب ان يقتصر على مانراه فى غيرنا وليس على مانراه فى أنفسنا أى يجب أن يكون تحقيقا موضوعياً وليس ذاتياً . وان أساليب التفكير والسلوك التى نتخذها انما هى عادات الفناها من الصغر . أو هى استجابات الجسم الانسانى للمؤثر الخارجى . و « تداعى الخواطر » أى ان خاطراً يستدعى خاطراً آخر فى التفكير هو فى حقيقته « استجابات معدولة » أو « شرطية » على تعبير بافلوف

ويلتفت واطسن التفاتا كبيرا الى تأثير الغدد فى التفكير والغرائز والعواطف وهو حين يتكلم عن هذا الموضوع يكاد يخرج من السيكلوجية الى الفسيولوجية . فللخصيتين تأثير فى الغريزة الجنسية وكذلك للدرقيتين فى العنق تأثير فى الذكاء الخ

وسيرى القارىء فى شرح الاستاذ يعقوب فام مايقفه على نواحى هذه النظرية أو هذا المذهب . ونحن نقنع بان نلاحظ عليها مايلى

١ — ان الطريقة التى يتبعها واطسن هى الطريقة « العلمية » التى استعملت فى سائر العلوم وهى الشك فى جميع الادعاءات السابقة وانكار مالم يقم عليه دليل بالتجربة والاحجام عن الفروض التى لايطلبها البحث

٢ — انه ينظر نظرا ماديا محضا للسيكلوجية ويعترف بالجسم لانه محسوس اما العقل والنفس فلا يعترف بهما

٣ — طريقته هى التجربة الموضوعية التى يمكن تكرارها وليس الاختبار الذاتى الذى يقع للانسان فيرويه عن نفسه

٤ — انه يكاد لا يعترف بالامزجة والميول الموروثة بل يرى ان كل شىء من استقامة او ذكاء او بلادة او اجرام مكتسب بالتعليم . والتعليم يدخل فيه جميع الاستجابات التى استجاب بها الجسم للمؤثرات الخارجية منذ الولادة

والى هنا نجد ان هذا الحذر « العلمى » يفوت على الباحث اشياء كثيرة ويحول دون استطاعته تفسير ظواهر نفسية كثيرة . فقد يكون التفكير حركة عضلية فى الحنجرة . ولكن هذا لا يفسر لنا كيف يمكن السكير المستهتر ان يكف فجاءة عن سكره ويعمد الى حياة جديدة او كيف ينقلب المجرم رجلا صالحا . وهذه

الانقلابات تحدث فجاءة . فلو كان التفكير استجابات متكررة لوجب ان يكون الانقلاب استجابات متكررة ايضا . ولذلك كان يجب ان نرى الانقلاب متدرجا . وهذا ما لا نراه فى الواقع . وانما يمكننا ان نفسر هذا الانقلاب بانه ايحاءات اندست فى العقل الباطن و لمنت وهى مكظومة ثم فاضت فجاءة

ولسنا نعرف ماهية النفس . ولكن تاريخ التطور يدلنا على ان وراء هذا الجسم شيئا اخر لا نراه ولكنه هو الذى يقرر للجسم هذه الاعضاء فيضع هنا جناحا او ذراعا او زعنفة ويكسوه بالريش او الشعر وينقله من البحر الى اليابسة أو الى الهواء . فليس الجسم سوى اداة فى يد هذه « النفس » فلو كان كل ما فينا هو طاقة الجسم ، وكل ما فى الجسم هو استجابات تبتدىء من الطفولة فكيف نفسر هذه الاشياء الجديدة : اجسام جديدة تنشأ بالتطور وآمال جديدة تنشأ بالتفكير ؟

ان استجابات الجسم لمؤثرات خارجية هى استجابات لشىء واقع قائم . فكيف تفسر به الاشياء الجديدة ؟

و « السلوكية » هى طريقة اكثر منها علما . وهى طريقة ناجعة للضبط والتحقيق . ووجودها الى جانب « التحليل النفسى » و « جيشتالت » سيكفل لنا عدم جنوحهما الى التطوح لانها تقف منهما موقف الرقيب الذى لا يؤمن بغير المادية المحسوسة فهى بمثابة الملحد ينتقد ايمان المؤمنين ويمنعهم من ان ينقلبوا فلاسفة نظريين او دراويش هاذين

يجب ان يلاحظ القارىء هذه الفروق قبل الكلام عن جيشتالت .

١ — ان سيكلوجية « التحليل النفسى » تعتمد على الاختبار الذاتى اى ما ارويه انا عن نفسى وقت غضبى او سرورى او حزنى او عشقى . فهى بذلك ذاتية

٢ — ان كلا من « السلوكية » و « جيشتالت » تعتمد على التجربة الموضوعية اى انها تلاحظ سلوك الغير . فهى بذلك موضوعية . ومن هنا اعتمدت كلتاهما على التجارب فى الحيوان بينما رجال التحليل النفسى لا يدخلون هذه التجارب فى تعاليمهم

وبعبارة اخرى يمكن ان نقول ان مدرسة التحليل النفسى هى ذاتية اختبارية بينما مدرستا السلوكية وجيشتالت هما موضوعيتان تجريبيتان

والآن ما هى جيشتالت ؟

جيشتالت هى لفظة المانية تعنى فى اللغة الحجم والتركيب وتعنى فى السيكلوجية اننا نفهم الاشياء كلا ومجموعا وليس تفصيلا واجزاء . وزعيم هذه السيكلوجية كوهلر الالمانى فقد وجد كوهلر هذا ان السيكلوجية التجريبية القديمة التى تقول بان الادراك

ينشأ من مجموعة الاحساسات ليس صحيحا . فالطفل الذى يرى الكلب لا يجمع اختباره منه ويكون ادراكه وفهمه عنه جزءا بعد جزء فيعرف الذنب ثم الوجه ثم الاقدام ثم يتحسس الشعر ويجمع هذا كله الى الصوت والرائحة الخ . وانما هو يدرك صورة كلية مجموعة من الكلب لاول ما يراه . وهذه « الكلية » هى شرط اساسى فى ادراكنا . فنحن عندما نسمع لحنا لا نأخذ فى تحليله الى انغامه المؤلف منها لكى ندركه وانما ندركه كلا كاملا . والصورة التى نراها لانحاول عندما نريد تفهمها الى تقسيمها اجزاء نفهم منها الجزء بعد الجزء . وانما نفهمها كلها

وهذه هى طبيعة الادراك عندنا حتى انه اذا رسم احد منا مثلثا ناقصا اكملناه ـ ونحن ننظر اليه ـ فى ذهننا . فطبيعة اذهاننا ان ندرك الاشياء بكليتها وليس باجزائها

وهنا نجد فرقا واضحا بين جيشتالت وبين « التحليل النفسى » فان جيشتالت تقول ان تحليل الفكرة الى اجزائها خطأ لاننا عند ما نفكر نعمد الى ذلك بالكليات وليس بالاجزاء . ثم بين جيشتالت وبين السلوكية فرق آخر . وهو ان الثانية تقول ان كل ما نتعلمه هو استجابات ميكانيكية نخطىء ونصيب فيها حتى نقع على الصواب فنلزمه ونتجنب الخطأ . ثم يتكرر الصواب فيصير عادة . ولكن جيشتالت تقول باننا ندرك المسائل بطبيعة اذهاننا لاننا نستحضر منها كلا منظما فنحل المسألة الواقعة امامنا بالعودة الى ما يتوهمه ذهننا من « تنظيم كلى »

وقد اجرى كوهلر وغيره تجارب مع القردة العليا تثبت هذا « التنظيم الكلى » فقد وضع موزا خارج القفص . وكان بالقفص قرد وعنده عصوان قصيرتان . ولكن كن اذا تداخلا ان تطولا وتعودا عصا واحدة . فعندما حاول القرد ان يصل الى الموز بالعصا ووجد قصرها جرها اليه ثم اهتدى الى ادخالها فى الاخرى فطالت واستطاع بذلك ان يجذب الموز من خارج القفص

فهنا نجد ان القرد لم يفكر تفكيرا ميكانيكيا عن عادات واستجابات سابقة قد تعلمها بطريقة الخطأ والصواب . وانما هو تخيل المسألة امامه كاملة تامة ثم شرع يخترع الطريقة التى يحقق بها خياله . وهذا هو ما نفعله نحن ايضا كلما فكرنا فى حل مسألة نعمد اليها فنتوهمها محلولة ثم نعود فنتوسل الى الحل بذرائع مختلفة . وهذه بالطبع خلاصة قصيرة جداً لجيشتالت ولكنها تعطى القارىء فكرة عامة عن هذه السيكلوجية التى يجب ان توضع جنبا الى جنب مع التحليل النفسى ومع السلوكية

سلامة موسى

الفصل الاول

دعائمها — مبادئها — نقدها

﴿ تمهيد ﴾ النظرية السلوكية (Behaviorism) نظرية طريفة فى علم النفس لا ترجع الى أكثر من عشرين سنة ، ولكنها فى الفلسفة قديمة ترجع الى الفلسفة اليونانية وعلى الأخص الى ديموقريطوس (Democritus) والاصطلاح حديث مأخوذ من كلمة (Behaviour) بمعنى تصرف أو سلوك أو نشاط . أما لماذا سميت هكذا فهذا ماسوف نشرحه بعد قليل

أظنه لايخفى على المطلعين ان لعلم النفس طريقتين للوصول الى الحقائق العلمية التى تتصل بسلوك الانسان وبسلوك الحيوانات أيضاً ونذكر الحيوان لأن المباحث النفسية أفادت من هذه الناحية الشيء الكثير . ولسنا نكون مغالين فى الواقع حين نزعم أن نفسيات الحيوان أو (Animal Psychology) قد تصير فى زمن قريب جداً علماً قائما بذاته مستقلا عن باقى العلوم كما قداستقل علم النفس فى مجموعه عن الفلسفة من نحو خمسين سنة فقط او مايقرب من ذلك . والطريقتان اللتان يستخدمهما علم النفس للوصول الى هذه الحقائق هما أولا المشاهدة (Observation) وثانيا الاستبطان (Introspection) الاولى منهما طريقة شائعة فى جميع العلوم على السواء وتستوى فيها العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية أو الاجتماعية . لا بل أن العلوم الطبيعية جميعها لا تستخدم وسيلة اخرى غير المشاهدة للوصول الى الحقائق التى تبحث عنها ، لأن العالم الطبيعى (Physical Scientist) يضع الشيء المراد درسه أمامه ويراقبه بتدقيق ليشاهد التغيرات التى تطرأ عليه فى الظروف المختلفة ، مستعيناً على تدوين خواص هذه المادة بالقياس والميزان والمكيال والأرقام الحسابية

فاذا أردنا ان ندرس ذرة من الاكسجين مثلا ، نفصلها عما يحيط بها ونضعها أمامنا ونحدق فيها لنرى حجمها وشكلها ولونها ثم ماذا تفعل هذه الذرة فى الاحوال

المختلفة ، ماذا يحدث لها اذا جمعنا معها ذرتين من الهيدروجين واطلقنا عليها جميعاً شرارة كهربائية ثم نجمعها مع بعض الذرات من المواد المختلفة ونشاهد تصرفها فى هذه الاحوال المتباينة ، ولا ننسى بالطبع ان نقيس حجمها ونزنها متى كان ذلك مستطاعا ، وبالاختصار لا نترك وسيلة من وسائل المشاهدة الا ونستخدمها فى الكشف عن مميزات هذه المادة ، وندون كل هذا ونقول « لقد فهمنا الاكسجين »

أما لو استطاعت هذه الذرة بالذات ان تتحدث الينا وتبثنا شعورها فى هذه الادوار المختلفة وتشرح لنا احساسها وميولها فى كل ظرف تجوزه ، ووقع الذرات الاخوى من نفسها ، وما تملكها من الحالات النفسية ، والدوافع والعوامل التى تحدوها لبعض أنواع السلوك والتصرف ، أما لو فعلت هذا كله ، فانها تكون قد استخدمت طريقة الاستبطان (Introspection) وتكون دراستنا لها من هذه الوجهة تدخل فى باب العلوم النفسية وليست العلوم الطبيعية . فالاستبطان اذن هو أن نتعرف رأى الموضوع (Subject) وشعوره وحالته النفسية عن طريق الاصغاء له وتدوين مايقول ، ثم نقارن هذا كله بما علمناه من غيره وبما نشعر به نحن فى ظروف مماثلة لهذه

وظاهر من هذا بالطبع أن هذه الطريقة لاتنفع إلا إذا كان الموضوع (ونحن نستعمل هذه الكلمة فى معناها الفلسفى) انساناً ، وإلا اذا كان العلم الذى نبحث فيه هو علم النفس أو احد العلوم الاجتماعية . وليس يخفى ان الانسان يعلم عن نفسه أموراً لايمكن الوصول اليها بالمشاهدة ، وهذه الامور بالطبع تفيد الدراسات النفسية كثيرا وتعين العلماء على دراساتهم العلمية فيما لو استطاع الانسان أن يحلل مشاعره بطريقة دقيقة وفيما لو استطاع أن يعبر عن خوالج نفسه من غير ان يكون متأثراً بهذه الخوالج

وعندما استقل علم النفس عن الفلسفة وأخذ مكانه بين العلوم المختلفة اقتصر فى نشأته على الاستبطان ، لا بل أسرف فى استعمال هذه الطريقة اسرافا كبيراً حتى ساعد على خلق جو من التدجيل أحاط به وكاد يقضى على الثقة فيه : ولم يكن للعلماء النفسيين وقتئذ إلا أن يجلسوا فى المقاعد الوثيرة ويدونوا مشاعرهم الخاصة وخوالج نفوسهم التى تنتابهم فى الظروف المختلفة ، ثم يقدمون كل هذه على أنها

ابحاث موثوق بها فى علم النفس ، كانوا يأخذون هذه المشاعر على أنها قضية مسلمة وعلى أنها شيء عام يجوز تطبيقه على كل انسان فى كل ظرف مادامت هذه المشاعر قد اختلجت فى نفوسهم فى وقت من الاوقات

نقول من هنا تسربت المخاطرات العلمية المتنوعة الى علم النفس ، وطغى عليه سيل الخيال والحدس والتخمين حتى صار بعض العلماء يزعم ان كل نزعة فى نفسه غريزة مثلا وبتعدد النزعات تعددت الغرائز حتى صار لا يحصيها العد ، فالبحث عن الطعام غريزة ، والحزن غريزة والتقزز غريزة والخنوع غريزة وهكذا إلى آخر هذه الخوالج النفسية التى قد تنتاب النفس كثيراً وقد لا تنتابها أبداً .

الدعامة الاولى

استمر الحال على هذا المنوال الى أن ظهر بعض العلماء والفلاسفة المحققين الذين لا يقبلون الظواهر بهذه السهولة ، نذكر من هؤلاء العلماء بافلوف الروسى وثورندايك وواطسون ، ومن الفلاسفة ديوى . نذكر هؤلاء لأن النظرية السلوكية استلهمتهم جميعا وان كان ثلاثة منهم غير سلوكيين فى نزعاتهم العلمية والفلسفية ، وسوف نبين كيف أن السلوكية استندت الى هؤلاء جميعا ولم تظهر بشكلها المتعسف إلا على يد أحدهم وهو وطسون

كان بافلوف الروسى بسبيل تجربة فسيولوجية ، فكان يحبس كلبا فى قفص ويجرب بعض التجارب فى جهازه الهضمى وكان من مستلزمات هذه الغاية أن يقيس مقدار اللعاب الذى يسيل فى فم الكلب فى بعض الحالات ، فلهذه الغاية ثقب فك الكلب الاسفل ووصله بأنبوبة تسمح للعاب ان يتسرب من فمه الى وعاء بعيد عنه ثم يقيس قدر اللعاب بالسنتمتر المكعب وبعدذلك كان يرن جرسا ويحضر الطعام من اللحم المقدد اللذيذ الذى تفوح منه رائحة تهيج حاسة الجوع . يأخذ هذا الطعام ويقترب به من الكلب فيسيل لعابه من الغدة الى الفم الى الأنبوبة فالوعاء ثم يجمع هذا اللعاب لتستعمله فى أغراضه العلمية المعينة

وبعبارة اخرى كان يستخدم مؤثرا (Stimulus) وهو الطعام الشهى اللذيذ ليحصل على استجابة (Response) بعينها يريدها لأغراضه العلمية . قلنا أنه كان

يقرع جرسا فى نفس الوقت الذى يقدم فيه الطعام ولسنا نذكر الآن لماذا كان يقرعه ، لسنا نذكر هل كان يفعل ذلك لتنبيه الكلب للطعام أم اشارة للخادم ليحضر الطعام ، وعلى أى حال كان يقرعه والسلام . وشد ما كانت دهشته عند ما اكتشف أن لعاب الكلب كان يسيل عند ما يسمع صوت الجرس حتى وان لم يكن قد حضر الطعام فعلا ، عجب لهذا وحار فى هذه الظاهرة الجديدة وأخذ يجرب تجاربه فيها عله يكتشف قاعدة علمية جديدة تعين العلم أيا كان نوعه على الوصول الى غاياته. وبعبارة أخرى كان بافلوف يجرب تجاريب فسيولوجية وانتهى بأن ترك هذه لشأنها وحول جهوده الى ظاهرة نفسية اكتشفها صدفة غير متعمد

تناول هذه الظاهرة النفسية بالبحث الى أن وثق أنه قد أحاط بكل العوامل الملازمة لها ، والى ان وثق أنه يستطيع أن يستخرج منها قانونا طبيعيا ثابتا لا يتغير ما دمت جميع العوامل متوافرة له ، أخذ يعيد الكرة المرة بعد الاخرى ويغير فى العوامل ويبدل وينوع فى المؤثرات ويحصل على الاستجابات التى يريدها الى أن وثق أنه مستطيع أن يضع لهذه الظاهرة قانوناً عاما يمكن تطبيقه . فى جميع الحالات وهذا القانون هو ما يعرفه الآن جميع علماء النفس باسم قانون الارتباط الشرطى (Conditioned Reflexes)

وهذا هو القانون « يمكن لأى مؤثر ثانوى أن يصير مؤثراً أوليا متى صحب مؤثراً أوليا عدداً معلوما من المرات » فما معنى هذا الكلام

معناه سهل بسيط لا يحتاج الى عناء كبير لفهمه والاقتناع به ، فلنرجع الى تجربة بافلوف بذاتها ولنطبقها على هذا القانون لنرى هل تستقيم هذه القاعدة فى جميع الحالات أم لا تستقيم . كان بافلوف يريد أن يحصل على قدر معلوم من لعاب الكلب . وبعبارة أخرى كان يرغب فى أن يحصل من هذا الحيوان على استجابة معلومة . ولكى يحصل على هذه الاستجابة كان عليه أن يقدم للحيوان مؤثراً معينا يفعل فيه ويجعله يستجيب بطريقة معلومة ، فقدم له الطعام الذى يستدر اللعاب فالطعام هو المؤثر الاولى أو الاساسى ولكنه كان يقرع جرسا فى نفس الوقت فكان صوت الجرس هو المؤثر الثانوى الذى لم يكن يظن أنه يقدم او يؤخر فى

الموضوع ، ولكنه وجد بالتجربة وبتطبيق المؤثرين معا فى الوقت الواحد أن المؤثر الثانوى قدصار اوليا أساسيا وأنه يكفى بمفرده للحصول على الاستجابة المرغوبة من غير استعانة بالمؤثر الحقيقى او الاصلى ، ومن هنا استنبط بافلوف هذا القانون العام الذى تقدم بنا ذكره

ولما كانت النتائج التى ترتبت على هذا القانون خطيرة نستميح القارىء عذراً فى ذكره مرة اخرى وبشكل آخر فنقول : . لو كان من شأن المؤثر (ا) أن ينتج فى الحيوان أو الانسان استجابة أو تلبية معينة هى (ب) فيستطيع المؤثر (ح) بمفرده أن يؤدى الغرض نفسه متى اتيح له أن يستصحب (ا) عدداً معينا من المرات ، وبمعنى آخر وبكلام عربى صريح مفهوم نقول انك تستطيع أن تجعل دموع الطفل تنهمر فى كل مرة تقدم له قطعة من الحلوى وذلك بأن تحدث صوتا مزعجا باغتا فى الغرفة عندما تقدم له الحلوى ، وأن تفعل ذلك بضع مرات متواليات

نحن لا ننصح باجراء هذه التجربة لانها تضر بالطفل ضرراً بليغا لا يمكن تقدير أثره فى حياته كشاب وكرجل ، وانما يمكن لمن يميل الى مثل هذه التجربة أن يجربها فى حيوان مثلا . تستطيع مثلا أن تحضر للكلب طعاما له رائحة جذابة لذيذة وبعد أن تضعه أمامه وقبل أن يتذوقه اضربه بعصى ، افعل هذا مرات متواليات فترى أن الكلب يهرب بأقصى سرعته عندما يشم رائحة هذا الطعام وقبل أن يوضع أمامه . يهرب الكلب وهو فى بيتك ويهرب وهو فى بيت غيرك أو فى الشارع أو فى أى مكان آخر يهرب وهو بصحبتك أو بصحبة غيرك فى أى زمان أو فى أى مكان

ليست هذه فروضا واحتمالات وانما هى شىء محقق ثبت فى بلدان مختلفة بتجارب كثيرة متنوعة اجراها علماء مختلفون متباينو النزعات والمشارب وكانت كلها مما يثبت هذه القضية من غير استثناء . نذكر من هذه تجربة جربها واطسون السلوكى فى كلب ايضا ، وهى ، وان كان فيها شىء من القسوة على الحيوان المسكين . الا انها كانت لازمة لخدمة العلم . وفى سبيل العلم تجد العلماء مستعدين للتضحية بحياتهم هم وليس بحياة الحيوان فقط

معلوم أن الكلاب ككل الحيوانات الاخرى وكالانسان ايضا . ميالة بالطبيعة الى الاختلاط الجنسى بين الذكر والانثى ، لا بل معلوم أن هذه الغريزة بالذات

لهـــا المكانة الاولى فى الطبيعة عامة ، أو المكانة الثانية على أقل تقدير . احضر واطسون كلبا ذكراً ورباه عنده فى المنزل الى سن مخصوصة ، وكان يحضر الاناث للتعارف ويتركه معها ويرقبه عن كثب فاذا هم الذكر أن يستجيب لداعى الغريزة الجنسية سلط عليه واطسون تياراً كهربائيا يجعله يعوى ويهرب ، واعاد واطسون هذه التجربة الى أن اتى وقت على هذا الكلب المسكين كان فيه يهرب ويفر متى تحقق أن زميله انثى وليس ذكراً فكان عندما يدخل عليه كلب آخر يهم اليه يستقبله ومتى عرف انه انثى يطير باسرع مما تحمله أرجله

ليست هـذه التجارب نادرة أو قليلة ، ولـكنها فى الواقع تملأ الارض من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، وليست هى وقفا على علماء النفس وحدهم أو على العلماء فى مجموعهم ، وانما هى شىء عادى يفعل مثله معظم الفلاحين الذين يملكون الحيوانات المختلفة ، وكثير من هؤلاء الفلاحين اجروا تجارب عديدة وهم يعلمون أولا يعلمون ، وكان حظ هـذه التجارب يتفاوت تبعا للفلاح نفسه ومقدار رغبته فى التفاهم مع الحيوان ، وتبعا لنوع الحيوان من ناحية أخرى . واظن أن الـكثيرين منا شاهدوا هذه الظواهر فى الخيل والـكلاب وغيرها . اذكر أن سقاء فى بلدنا كان يملأ قربته ثم يقول لحماره « تعالى هنا . اتدور » فيأتى الحمار ويدور على نفسه كما يطلب اليه . وفى طبيعة الاشياء أن هذا السقاء استخدم قانون الارتباط الشرطى وهو لا يدرى . لأنه من المستحيل أن يحصل على هذه النتيجة من غير استخدام هذا القانون . ومحصل القول فى هذا أن بافلوف الروسى اكتشف هذا القانون النفسى بطريق الصدفة أولا ، وأنه بنى الدعامة الاولى التى ترتكز عليها النظرية المسلـكية فى علم النفس ثانيا . بقى علينا أن نقول شيئا عن ثورندايك وديوى . ثم نشرح مبادىء النظرية المسلـكية لنرى كيف استعانت بهؤلاء ايضا

الفصل الثانى

مباحث ثورندايك فى القطط وأثر الغدد الصماء

منذ خمس وعشرين أو ثلاثين سنة تقريبا كان ثورندايك رئيس قسم العلوم النفسية بجامعة كلومبيا الآن طالبا يتلقى علم النفس من ويليام جيمس وكان مهتما بعلم النفس التجريبى بنوع خاص وكان جل اهتمامه موجها الى نفسيات الحيوان Animal Psychology، اذ فى هذا المجال يستطيع ان يجرى التجارب من غير ان تعترضه صعوبات يعتد بها ، أو يتعذر التغلب عليها . انشأ ثورندايك اذن معملا لتجاريبه وجهزه بكل مايحتاج اليه العالم النفسى من أدوات و وسائل ، وكان موضوع تجاربه القطط وتصرفاتها فى الظروف المختلفة المتباينة فكان يتحكم فى عوامل البيئة ويتصرف فيها بالطريقة التى يهوى ويريد ثم يشاهد استجابات القطط لهذه البيئة وتصرفاتها فيها

بنى ثورندايك اقفاصا لهذه القطط ورتبها بشكل خاص وبطريقة معلومة بحيث لايمكن ان تفتح أبواب هذه الاقفاص الا اذا ضغطت القطة على مزلاج أو شدت حبلا أو حركت عصا ، ثم يأخذ القطة ويضعها داخل القفص ويغلق الباب دونها ، ولكى يزيد رغبتها فى الانطلاق من هذا السجن ويولد فيها الدافع للخروج ، ويلهب رغبتها فى التعجيل فى طلب الحرية ، كان يضع أمامها خارج القفص بعض الاكل الشهى اللذيذ ! يضعه على مرأى منها وتحت أنفها وعلى قيد شبر من القفص ، ومن شأن هذه الحالة بالطبع ان تجعل رغبة القطة فى الانطلاق ملحة قاهرة . وكلما الم بها الجوع ، توجهت كل قواها النفسية الى هذا الغرض بذاته ، وأخذت تجرب كل طريقة تعرض لها علها تتمكن من الانطلاق من هذا الاسر

كان ثورندايك يفعل كل هـــذا ، ويؤلب كل هذه العوامل على القطة ، ثم يجلس قبالتها ليدون كل حركة تأتيها وكل بادرة تبدر منها ثم يسجل الوقت الذى

استغرقته فى هذه الحركات وعدد المحاولات التى بذلتها فى سبيل الخروج ، فكانت القطة مثلا تروح وتغدو فى القفص بحالة عصبيه تدل على ثورة نفسية داخلية تتأجج فى أعماق كيانها فتندفع بجنون الى جوانب القفص علها تتسلل من بين قضبانه ، او عسى ان القضبان تلين تحت ضغط كفيها ، وعند ماتعجز دون هذه الغاية تفتح فمها وتنهش كلما يعرض لها اعتباطا ، وتعمل يديها ضربا فى كل شىء على غير هدى ، وقد تستغرق بضع دقائق فى مجهود ضائع مثل هذا ، ثم يعاودها الهدوء فترقد ، وقد تختلس النظر للاكل الموضوع أمامها ، وتكف عن الحركة بضع دقائق أخرى ، ثم تعاودها الثورة النفسية التى تملكتها من قبل

وهكذا يتناوبها الهدوء والثورة والسكون والنشاط ! والحركة التى لاترمى الى غاية قريبة معينة الى ان تتمكن فى آخر الأمر من ان تعمل يديها وفمها فى المزلاج وتفتح الباب ثم تثب الى الأكل بشراهة وتلتهمه التهاما ، كل هذا وثورندايك جالس أمامها يدون مشاهداته بالتدقيق ويعد عليها حركاتها وسكناتها ، ويحاسبها على الدقائق والثوانى

من طبيعة التجارب العلمية انه يمكن تكرارها المرة بعد الاخرى ، والتوصل عن طريقها الى نفس النتيجة الواحدة ، فالحديد مثلا يصدأ اذا تعرض للماء والاوكسيجين فى درجة معلومة من الحرارة ، ولا يمكن ان تكون هذه قاعدة علمية يركن اليها مالم تثبت بالتجربة فى كل مرة يتعرض فيها الحديد للماء والاوكسيجين فى درجة معينة من الحرارة . وهكذا الحال مع هذه القطط . لايمكن ان يكون لمشاهدات ثورندايك قيمة علمية الا اذا استخرج منها قانونا عاما يمكن تطبيقه فى جميع الحالات المتشابهة ، ويكون من شأنه ان يؤدى الى نفس النتيجة التى وصل اليها هو ، فلا بد والحالة هذه ان يجرى نفس التجربة عدداً معقولا من المرات وعلى عدد معقول من القطط . وهذا ماحصل بالضبط . فأن ثورندايك لم يستعجل الحوادث . بل تريث وصبر وشك فى نتائجه ماأمكنه ان يشك ، ولما لم يجد بداً من الرضوخ لتلك النتائج ، رضخ وقدمها للعالم العلمى على أنها ثبتت بالتجربة والاختبار

لست أذكر الارقام على التحقيق ، ولست أملك المراجع التى احتاج اليها

لايراد الأرقام بشكل قاطع . فاكتفى هنا بايراد الحقائق مجملة وادع التفاصيل لمن يود البحث وراءها . وجد ثورندايك ان القطط أيضا تتعلم من الاختبار وتتمرس بالتجربة ، وتختزن الاختبارات فى جهازها الفزيولوجى بشكل ينفعها فيما يعرض لها فى حياتها من الظروف المختلفة ، وبعبارة أخرى وجد انها تستطيع ان تتعلم الى حد محدود وتختصر الطريق وتوفر الجهود الضائعة عبثا . وتقتصد فى الحركات التى كانت تصرفها جزافا فى أول الأمر . فبعض القطط التى كانت لاتخرج من القفص مثلا قبل ان تقوم بستين حركة فاشلة وتستغرق عشرين دقيقة فى هذا النشاط الضائع . أصبحت تخرج فى أقل من دقيقتين ولا تأتى الا بخمس عشرة حركة مثلا . ولاحظ أيضا ان الاختبار والتجربة يزيد القطط معرفة وحكمة ويوفر عليها كثيراً من الزمن والجهود

ثم خرج الاستاذ ثورندايك من هذا كله ومن السنين المتوالية التى قضاها فى أمثال هذه التجارب بالقانون الآتى وهو : ان الرابطة بين المؤثر والاستجابة تزداد قوة ومتانة بالاستعمال المستمر الى ان تصير الاستجابة والمؤثر والرابطة جميعا جهازا خاصا مستقلا قائما فى صلب الجهاز الحيوانى العام . وأطلق على هذا الجهاز اصطلاحا خاصا اسماه (S R Bond) وترجمتها الحرفية (مركب الاستجابة والمؤثر) وصار الانسان يذكر الاستاذ كلما ذكر هذا الجهاز النفسى ، وصار الاستاذ معروفا فى العالم العلمى بهذه النظرية

* * *

ومحصل هذه النظرية بكلام عادى واضح ان كل مؤثر ينتج استجابة معلومة فى زمن معلوم وبعد جهود معينة . وكلما تكررت هذه الاستجابة وهذا المؤثر وتتبع أحدهما الآخر يصير هذا نظاما قائما بنفسه ينفعل ويؤدى الى نفس النتيجة فى زمن أقل وبعد جهود ضئيلة أو من غير جهود أصلا . ويكفى فى هذه الحالة ان يتوافر المؤثر حتى تتبعه الاستجابة للتو والساعة كما تبين من هذه التجارب التى أجراها ثورندايك وتوصل عن طريقها الى وضع هذا القانون الذى نحن بصدده ولا يتبادر الى ذهن القارىء ان هذا القانون ضئيل الشأن لايستلزم كل هذه

الضجة التى نقيمها حوله ، ولا يتبادر هذا لذهن القارىء لأن الواقع بخلاف هذا على خط مستقيم . فاقل مايقال فى هذا أنه قد ترتب على هذا عدة قوانين أخرى مهمة فى علم النفس قربت مابين هذا العلم وباقى العلوم الطبيعية الأخرى كما أنها باعدت مابينه وبين الفلسفة والعلوم المبنية على المنطق وحده ، كما باعدت بينه ايضا وبين علم النفس فى شكله القديم لما كان مرتكزاً على المضاربات العلمية والفروض والاحتمالات بعيداً عن التجربة والمشاهدة

وأهم مانجم عن هذا القانون نظرية العادة الحديثة أو قانون العادة The Law of Habit كما وضعه ثورندايك أيضا . ولسنا نروى ان نخوض فى هذا لأن المجال لايتسع له ، وانما نكتفى هنا بالقول أن فلسفة ديوى النفسية مبنية على قانون العادة هذا من جهة ، وان النظرية السلوكية من جهة أخرى استغلت هذا القانون استغلالا مروعا يكاد يطغى على مناحى الفكر فى علم النفس ويجعل منه طريقة وليس موضوعا للعلم

وبمعنى آخر أن وطسون تناول هذه القوانين وطبل لها وزمر ، وخلق لها جوا فسيحاً واعمل فيها اسلوبه السهل البسيط . ووجه اليها نظر الدنيا باسرها ، وخرج من هذا كله بأنه لا يصح أن نستعمل مع علم النفس الا طريقة المشاهدة والتجربة دون طريق الاستبطان والقياس . وأخذ يصرح فى وجه العالم قائلا « ها كم ما توصل اليه بافلوف وثورندايك وما توصلت اليه أنا عن طرق المشاهدة لاغير فاذا استطاع باقى علماء النفس أن يفعلوا سوى أن يرجموا بالغيب ويرتبوا الفروض والاحتمالات . ويلوكوا مثل هذه الالفاظ كالغريزة والشعور واللاشعور ، والعقل والروح والنفس ، وأمثال هذه الالفاظ التى لا يدرى أحد لها حدوداً ، ولا يستطيع اثنان أن يتفقا على مراميها ؟ اتركوا طريقة الاستبطان هذه لأنها لن تفلح فى شىء الا أن تضلل بالافهام وتحيط علم النفس بجو من التهويش والتدجيل » . هذا محصل ما يقوله وطسون فكأن المعركة تدور فى الواقع كما قلنا على الطريقة وليس على الموضوع ذاته ، وفى الواقع ونفس الامر أن النزاع لايدور بين السلوكيين وغيرهم الا على هذه النقطة وحدها

لنعد الى ما كنا فيه ، لنعد الى شرح المقدمات التى ادت الى ظهور النظرية السلوكية بهذا الشكل مرجئين الكلام على النظرية ذاتها الى الوقت المناسب . أما الآن فنكتفى بالقول انها ارتكزت أولا على تجارب بافلوف التى شرحناها فى الفصل السابق وثانياً على تجارب ثورندايك التى تناولناها هنا

ومما ساعد على انتشار السلوكية .وقوى وطسون فى دفاعه الحار عنها التجارب المختلفة المتباينة التى يجريها كثير من العلماء متفرقين مستقلين ، وقد ساهم الطب ايضا فى العمل على ترويج هذه النظرية عن طريق المباحث الشائقة التى قام بها الاطباء فى الغدد على العموم . وليست معرفتنا بهذه الغدد مستكملة أو دقيقة بأى حال ، ولكن ما عرف عنها الآن يكشف عن بعض نواحى النفس التى كانت مغلقة دوننا من فجر التاريخ الى الآن ، فخصائص هذه الغدد وطبيعتها ووظيفتها وأنواع تصرفاتها وأثرها فى سلوك الانسان — كل هذه امور لم يكشف عنها العلم بشكل قاطع ، وتجاربه فيها لم تكن سهلة ميسورة

لقد ثبت من هذه التجارب — على ضآلتها وقلتها — أن عواطفنا ومشاعرنا وتصرفاتنا عرضة لتأثير هذه الغدد الى حد محدود ، وأن لهذه العواطف والمشاعر اصلا فيزيولوجيا طبيعياً فينا ، وانها ترتكز الى درجة معينة على افرازات هذه الغدد بحيث لو استطعنا بطريقة من الطرق أن نتحكم فيها وأن نقسط افرازتها تبعاً لارادتنا وتفكيرنا لصار باستطاعتنا أن نتحكم الى حد كبير فى تصرفاتنا وأخلاقنا

* * *

والامثلة على ماتستطيع هذه الغدد أن تفعله كثيرة ، فلايعوزنا منها الا بضعة نذكرها للتدليل على هذا الكلام . من هــذه الامثلة أن أحد العلماء أخذ قطة وأطعمها طعاماً شهياً لذيذاً وجهز لها فراشاً ناعماً وثيراً بجانب المدفأ حتى تنام ملء جفونها وتستمتع بالحياة هادئة راضية ، وبينما هى على هذه الحال من الهناءة والرغد اطلق عليها كلبا بشكل مباغت ، فانتصبت واقفة للدفاع عن النفس والنضال فى سبيل الحياة الغالية العزيزة ، ثم فحصها فى الحال فحصا فيزيولوجيا طبيعيا ليرى التغيرات الطبيعة التى انتابتها بسبب هذا الظرف . وهاك ما وجد

وجد أن احدى الغدد بادرت الى إرسال افرازها الى الدم فانتقل بواسطته الى جميع أجزاء الجسم التى يهمها هذا النضال والتى ينتظر منها أن تضطلع بجزء منه ، وتقوم بقسطها فيه . انتقل هذا الافراز أولا الى المعدة فشل فيها الحركة — حركة الهضم — وأوقف دولابها للتو والساعة ، ثم امتد هذا الافراز الى القلب فزادت دقاته وأسرعت ودفع بالدم فى سرعة وكثرة الى باقى اجزاء الجسم . وغدت الحركة الدموية قوية فائضة غزيرة واندفع الدم بنوع خاص الى العضلات أولا فزادها توتراً وصلابة وحفزها للعمل والنشاط السريعين الخفيفين ومن جهة ثانية اندفع هذا الدم بغزارة الى ما تحت الجلد وتكاثرت هنالك الكريات البيضاء حتى اذا جرح الحيوان . تجمعت هذه الكريات فى مكان الجرح وسدت منافذه بأسرع ما تستطيع فتمنع النزف الذى قد يودى بحياة الحيوان وتكافح الميكروبات ، هذا علاوة على ما ذهب منه الى الدماغ لينبهه ويزيد فى مقدرته على اصدار الاوامر الى باقى الاعضاء . والهيمنة على المعركة ، وادارتها على أحسن وجه يستطيعه ، وازداد نصيب الرئتين من الدم أيضاً حتى تستطيع ان تؤدى عملية التنفس على الوجه المطلوب . وكان من نتيجة ذلك ان اسرع التنفس ، وتوافر للحيوان قدر من الاوكسجين يسمح باطالة الكفاح الى الدرجة القصوى ويقدم باحتراقه القوة اللازمة للنضال . ثم اتسعت مسام الجسم لتسمح بمرور المواد التى تستهلك فى هذه المعركة . وهى العرق الذى يتسرب من الجسم وهو فى جهاد شاق عنيف

كل هذا وغيره مما لم نذكره نشأ عن افراز احدى الغدد لسائل معين قلب كيان الحيوان . وانتقل به من حالة هادئة وادعة الى مايشبه الثورة فى لمح البصر

وقد ثبت من التجارب العلمية ان هذا بالذات مايحدث لنا نحن الآدميين بفعل هذا السائل العجيب الذى تطلقه بعض الغدد فى أحوال معينة . وليست هذه الظواهر وقفاً على العلماء وحدهم ليشاهدوها . ولكنها أمر شائع يشاهدها كل انسان فى حياته اليومية

بالطبع نحن فى حياتنا اليومية لانملك الوسائل التى بها نتحقق سواء أكانت الغدد تفرز هذا السائل أم لاتفرزه ، وانما نستطيع أن نرى هذه الظواهر أو بعضاً منها فى كل زمان ومكان

تستطيع ان تهين انساناً فترى احتقان بشرته بالدم وتقلص عضلاته وسرعة تنفسه ، وترى العرق يتصبب من مسام جسمه ، وتكاد تسمع دقات قلبه ، ثم تستطيع أن تغبط نفسك اذا كان هذا كل ماتستطيع ان تشاهده وتحسه . هذه هى الظواهر التى تستطيع ان تشاهدها بالعين المجردة وفى عرض الطريق ، ولكنك تستطيع ان ترى ظواهر أخرى اذا كانت هذه التجربة فى معمل مجهز بالأدوات والوسائل اللازمة ، وأنا أعرف بعض العلماء الذين كانوا يأخذون الطلبة الى معاملهم ويهينونهم على غرة بالألفاظ ثم يشرعون فى دراسة هذه الغدد وآثارها

هل يستطيع العلماء أن يتحكموا فى هذه الغدد ويخضعوها لارادة الانسان فتفعل وتنشط عند مايريد وتكف عن العمل والنشاط عند مايشاء ؟ لسنا نعلم . ولكننا نظن أنهم لو استطاعوا الى هذا الأمر سبيلا فسوف يكون فى مقدورنا أن نتصرف كما نريد ونهوى ، ولا تعود عواطفنا تتحكم فينا وتحملنا على بعض أنواع السلوك وأنوفا راغمة

كان من شأن هذه التجارب أن تشد ازر السلوكية وتقدم لها الدليل تلو الدليل وتعينها حتى تفسح لها مكانا فى الصدر ، واستغلت السلوكية هذه الفرصة التى أتتها فى كثير من الاحيان عن طريق المعسكر الآخر من علماء النفس خير استغلال لمنفعتها ولمهاجمة خصومها

بقى علينا ان نبين كيف ان السلوكية استغلت فلسفة ديوى وخرجتها تخريجاً يلائمها سواء أرضى ديوى أم كان من الغاضبين . وليس يخفى بالطبع ان ديوى هو الامام الأول فى عالم الفكر فى الدنيا الجديدة

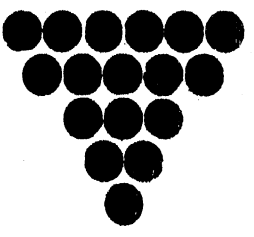

الفصل الثالث

فلسفة ديوى العملية ونظرته إلى العادة

أشرنا فى الفصل السابق إلى ان النظرية السلوكية ارتكزت فيما ارتكزت عليه على فلسفة ديوى . فهذا الفيلسوف الكبير وان كان لا يؤمن بالسلوكية كما يدعو اليها جون وطسون الا أن نظرته فى الفلسفة عامة وفى العادة بوجه خاص مما يساعد وطسون وأشباهه على الاغراق فى خطتهم والامعان فى طريقتهم فى علم النفس . والواقع ان العالم الفكرى فى نيويورك على العموم وفى جامعتها على الخصوص — جامعة كولومبيا — يتفق فى كثير من الامكنة مع ما يأخذ به السلوكيون . ثم ان التجارب التى أجراها علماء نيويورك ساعدت هذا المذهب الجديد وأغدقت عليه الحقائق اغداقا جعله يحتل مكانا عاليا فى العالم الفكرى لم يكن ليحتله لو لم تكن نيويورك قد قامت بقسطها من هذا . والواقع ان أى شىء فى علم النفس يحظى بموافقة ثورندايك وودورث وجيتس ومونرو وديوى الضمنية أو الصريحة لابد أن يقبل فى معظم بقاع الارض ويعطى المكان اللائق له . ذلك لأنك تستطيع ان تركن الى أسمائهم الطنانة والى المقام العلمى الذى يتمتعون به . نحن لا نزعم أن العالم يقبل قضاياهم مغمض العينين . ولكننا نزعم ان الشأن معهم كالشأن مع طلعت باشا حرب وعلى باشا ابراهيم فى مصر . فما يقول الاول منهما فى الشؤون الاقتصادية ، وما يذهب اليه الثانى فى الجراحة يجب ان يكون له وزن فى هذا البلد ، ويجب ان يقبله جمهور المفكرين على انه رأى له من الدراية والخبرة ما يجعله ذا قيمة كبيرة فى تصرفاتنا وفيما نأخذ به من الآراء .

يدل على الأثر الذى خلفته مدرسة نيويورك فى علم النفس وعلى انها كانت احدى الدعامات الرئيسية التى ارتكزت عليها السلوكية بنوع خاص — يدل على

هذا انه لما طلب الى ما كدوجال أن يكتب مقالا فى كتاب حديث عن النظرية السلوكية وضع هذا العنوان لمقاله : « علم النفس الذى يدرسونه فى نيويورك » . ثم كتب عن مسؤلية هذه المدرسة فى معاونتها للسلوكية على الذيوع والانتشار ، وخص مقالته بهذه الناحية فقط وخرج منها بأن أصل السلوكية منغرس فى تربة نيويورك وان كانت أغصانها وفروعها منتشرة وترى بشكل يملأ العين حيث يقيم جون وطسون نفسه . نعم ان ما كدوجال لم يقل ان نيويورك سلوكية فى مذهبها . ولا نقول نحن بهذا أيضا ، وانما مانحب ان نبينه بوضوح وجلاء هو هذا : ان النظرية السلوكية كما هى الآن لم تكن لتظهر على مانظن بهذا الشكل لو لم تكن نيويورك قد عضدتها وشدت أزرها بطريق غير مباشر . وقدرأينا فى الفصول السابقة مافعله ثورندايك فى هذه الناحية ، وأما ديوى فقد اكتتب لهـــذه النظرية بشيئين

* * *

اكتتب ديوى أولا بنظريته فى العادة . ولو ضغطت على هذه النظرية وتبعتها الى أقصى ماتستطيع أن تصل بك ، لوجدت أنها تزعم أن الانسان آلة ميكانيكية لاغير . نعم انه لم يقل ذلك وحقاً أن ديوى أحصف من أن يقول بهذا واحكم من أن يسلم بالميكانيكية Mechanism فى الفلسفة أو فى علم النفس . ولكنك عندما توغل فى نظريته فى العادة وتستقصيها إلى حدودها ، وتتفهم روحها ومراميها لايمكنك أن تخرج الا بان الانسان فى تصرفاته يشبه الآلة الميكانيكية ، لابل هو كذلك دون شك . لقد كتب ديوى عن علم النفس ، ومفتاح ماكتب هو هذه العادة التى ، إذا فهمتها على حقيقتها ، وجدتها حجر الزاوية فى نظريته النفسية

يقول ديوى « كل الفضائل وكل الرذائل ان هى الا عادات ، والشخصية مجموع عادات والارادة عادة ، والأخلاق تنتج من تفاعل العادات بعضها مع بعض ، والتفكير نفسه أن لم يكن جزءا من العادة فهو عادة مستقلة بنفسها ، والفضائل من الوجهة العملية معناها عرف وعادة وقصص شعبية ، ومع ذلك فان العادة لاتفهم الا على الطريقة الميكانيكية الآلية . والواقع ان الحياة فى مجموعها لاتؤثر وتفعل

الا عن الطريق الآلية . ولكى نفهم العادة ذاتها يجب أن نرجع إلى الطبيعة والكيمياء والفيزيولوجيا وليس لعلم النفس » . .

لاحظ أن ديوى لم يقل أن الانسان آلة أو اداة ميكانيكية ولكنه يقول ان نشاطه يحتاج إلى هذه الميكانيكية ، وبمعنى آخر انه اذا لم يكن الأنسان آلة ميكانيكية حقاً فهو كذلك من وجهة عملية ، وبكلام أوضح كأنه يقول « انا لا اؤمن ، ياأسيادنا ، ان الأنسان اداة لاغير . ولكن لاارى الا انه اداة . قد يجوز ان يكون الأنسان بخلاف ذلك ولكنى لااستطيع ان ازعم فى ضوء الحقائق التى وصلتنا — ان الأنسان شيء غير اداة أو آلة تنفعل وتفعل متى وجدت مايدفعها إلى الفعل والنشاط » .

ونحن نعرف بالطبع كيف تتكون العادات ، والطريقة الآلية المحضة التى تتكون بها . فالبيئة تقدم المؤثر الذى يفعل فى الكائن ، والكائن يقدم الأستجابة المطلوبة وتتكرر هذه العملية وتتوالى الى الوقت الذى ينفعل فيه الكائن بطريقة آلية محضة من غير أن يكون له رأى أو عاطفة ، ومن غير ان يتعمد الأستجابة للمؤثر بأى شكل . ولنضرب على ذلك مثلا بانسان يريد أن يتعلم ركوب العجلة . فى هذه العملية نرى هذه الامور واضحة (١) الأرادة . فلا بد من العزم قبل ان يشرع فى التعلم (٢) يصحب التعلم عاطفة السرور للنجاح والحزن للفشل ، (٣) يفكر فى كل الحركات التى يأتيها حتى يستطيع أن يسقط منها مالا يستقيم مع غايته . فكأن هذا الانسان استعمل كل قواه النفسية من ارادة وعاطفة وعقل لبلوغ هذه الغاية . ولكنه متى تعلم — أو بعبارة اخرى متى صارت هذه عادة فيه ، لايعود يستخدم شيئا مطلقاً من قواه النفسية ويصبح مجرد اداة وآلة عندما تجمع الصدفة بينه وبين العجلة (الدراجة) . وعندما تلمس يده العجلة لايشعر بشيء مطلقاً الا ان يجد نفسه فوقها وسائراً فى الشوارع الى غايته . ولا نرى فى هذه الحالة اثراً للارادة أو العاطفة أو العقل

*

هذا الجزء من نظرية ديوى يخدم قضية "سلوكيين أجل خدمة وخصوصاً لأنه صادر عن ديوى أبعد الفلاسفة اثراً فى حياة الأمريكيين . ولكن السلوكية تقف عند هذا الحد ولاتتعداه ، وبعبارة اخرى لاتسير وراءه الى اكثر من هذا

فهذه الناحية من فلسفة ديوى آلية ميكانيكية . والنظرية المسلحية آلية ميكانيكية ايضاً . فلماذا لاتستخدم السلوكية هذا العون الذى هبط عليها من السماء ؟ لماذا لاتستغله اكبر استغلال ؟ يجب ان تفعل ذلك . وهاهى تفعل

لكن ديوى يقول انه لايستطيع ان يزعم ان الانسان آلة . وهذه نقطة مهمة لايجب ان نغفلها من حسابنا . لابل يجب ان نتنبه لها كلما عن لنا ان نفهم ديوى ونظرياته . والعالم يفهم هذا عن ديوى . والسلوكية ايضاً تفهمه حق الفهم ولكنها لاتقيم له وزنا . وما عليها ان اختلفت مع ديوى أو مع غيره ؟ هى لم تأخذ على عاتقها ان توفق بين الفلاسفة ؛ وليس فى برنامجها ان تخضع لديوى أو لغيره . هى تفهم حقاً انه من مصلحتها ان يكون ديوى فى جانبها ينضح عنها ويعينها . وهذا الجزء من فلسفته ينفعها وتستطيع ان تستغله . وأما ماعدا ذلك فلا تهتم له ولا تحاول ان تطعن فيه . وعلى أى حال فقد وجدت السلوكيه فى ديوى نصيراً وفى نظريته فى العادة عوناً كبيراً . وهى تقبل هذا وكفى

* * *

والشىء الثانى الذى اكتتب به ديوى للسلوكية هو فلسفته . ورأيه فى الحقائق الكونية وفى المعرفة والميتافيزقا . حقا ان فلسفته لم توجد فى الاصل لخدمة السلوكية أو غيرها من نظريات العلم . هذا حق . ولكنه حق أيضا ان السلوكية سرت لهذه الفلسفة . وغبطت نفسها لأنها عندما رأت النور فى هذه الدنيا وجدت مثل هذه الفلسفة التى يمكنها ان تعيش وتنشأ وتترعرع فى كنفها . وتحتمى بها عندما يشتد الجدل ويحمى وطيس المساجلة ، وليس من شك ان هذه الفلسفة قوية بشيئين . أولا قوية بديوى نفسه . وهو قوة لايستهان بها — ثانياً هى قوية لأنها مستندة الى الحقائق العلمية من جهة والى قواعد الذوق السليم من جهة أخرى

الاميركيون أناس عمليون أكثر منهم نظريون ، لا بل يصح ان نزعم أنهم بعيدون عن النظريات وخصوصا ماكان منها يدخل فى باب التجريد Abstractions والرجم بالغيب . والانسان يستطيع ان يتحدث الى مفكريهم ماشاء عن النظريات وعن الفروض والاحتمالات التى تتصل بالكون فى مجموعه . والتى تتصل منها بالحقائق الموضعية والمحلية ، يستطيع ان يتحدث اليهم بهذا وبما يشبهه . ويستطيع

ان يرى لنفسه انهم قوم مثقفون مطلعون على تطورات الفكر من عهد ائمة الفكر فى اليونان الى يومنا هذا ، ثم يستطيع ان يرى لنفسه أنهم يتمتعون بقسط وافر من الذوق السليم (Common sense) ، وانهم يزنون الامور بميزان ، ويدلون على اتجاه الامور ، يبينون الاحتمالات ، ويكشفون المتناقضات فى النظريات التى تعرض لهم فى دراساتهم المختلفة . فمن هذه الناحية لاتجد أنهم يختلفون فى شىء عن مفكرى أوروبا الحديثين . والواقع انهم متنبهون لكل الحركات الفكرية الحديثة فى العالم وسباقون الى الاتصال بها عن قرب ، وممارستها عن كثب

هؤلاء هم الاميركيون ، وهم كما ترى لايختلفون عن الاوربيين من هذه الوجهة وأما من الوجهة الاخرى فهم جد مختلفين لانهم يصرون على ان يروا أثر أى نظام فكرى فى الحياة العملية . هم لايكتفون بالنظريات بأى وجه من الوجوه ولكنهم يعنون أكثر بالتجربة وبالاختبار وبتطبيق النظريات ويهتمون لهذه أكثر من النظريات نفسها . وكل نظام فكرى وبحث نظرى لايعضده الواقع ولا تسنده الحقائق المحلية التى يكتشفها العلم ويعثر عليها الذوق السليم لايستحق عندهم شيئاً . وأول سؤال يقدمه لك الاميركى المفكر عندما تتحدث معه عن بعض النظريات هو هذا « وما اثر هذا فى الحياة الواقعية وفى العيش من يوم الى يوم ؟ هل تستقيم هذه النظرية مع التجربة والاختبار (Does it work ؟) هل لهذه النظرية مايدعمها من المشاهدات والاختبار ؟ هل تجوز الامتحان العملى ؟ وهى حق أولا وتستحق الاهتمام ثانياً اذا كانت تجوز هذا الامتحان ، وهى ليست حقاً وليست ذات قيمة اذا لم تجزه »

من نوع الحياة التى يحياها الاميركى نبتت الفلسفة التى يعتنقها ويؤمن بها . والاميركى فى هذا ليس مبتدعا ، وانما هو يدرج على سنن الناس أجمعين . فالفلسفة فى أى مكان أو زمان هى التنظيم الفكرى لحياة الجماعة وهى الناحية المعنوية لنوع الحياة فى أى صقع . فكما أن الناس يعيشون بأجسادهم فى بيئة خاصة ، كذلك هم يعيشون فى جو فكرى يستمد قواعده ونظمه من تلك الحياة المادية . فالحياة الزراعية

التى تعتمد على شهوات الطبيعة تكون فلسفتها فى الغالب صوفية جبرية، و الانسان الذى يعيش وسط الآلات الميكانيكية يضغط أزار الاداة فيحرك عالما صغيرا وهو واقف يشهد سيرها ويدبر لها أغراضها — انسان مثل هذا يصعب عليه أن يكون جبريا بأوفى معانى الكلمة

اذن فالفلسفة الاميركية مبنية على التجربة والاختبار والمشاهدة ، والنظريات التى يدعمها الاختبار تبقى ، وتلك التى لاتستقيم مع التجربة تذهب هذه هى الفلسفة العملية ، وهى فلسفة ديوى (وجيمز من قبله) ويدعوها Pragmatism ومعناها (العملية) . ومحصل هذه الفلسفة أنه لايحسن بنا ان نتكهن عن هذا الكون بأكثر مما يسمح به الواقع المحدود ، وبأكثر مما تسمح به الحقائق المتوافرة لنا . وليس معنى هذا أننا ننكر أى شىء من هذا القبيل ، ولا نثبته أيضاً وننصح عنه ، وكل مانستطيع ان نفعله فى هذه الحالات هو ان نقول « قد يجوز ، يمكن . قد يكون » ، وبخلاف هذا لا يجب أن نقطع برأى . ومن هذه الوجهة يصح ان نعتبر الفلسفة الاميركية نوعا أو فصيلة من الفلسفة الواقعية الجديدة أو مايسمونه neo-realism

ويرى من هذا ان الفلسفة العملية تعتمد على الحقائق التى تستمدها من الاختبار والمشاهدة . وبمعنى آخر نجدها تبتعد عن المنطق أو علم الكلام عندما تريد أن تبنى لنفسها نظاما للكون وللحقائق الأزلية . ذلك لانها لاتحب (كانت) ولا تعطف على نظرياته ومحاولاته الكلامية فى تشييد فلسفة معقولة ونظام محكم . ولكنها ترجع إلى الحس والى الامور المشاهدة ، علما منها أنه مهما حاول المنطقيون ان يتنصلوا لايستطيعون ان يثبتوا غير هذا الامر — وهو ان كل معلوماتنا عن الدنيا المحيطة بنا انما مرجعها إلى الحواس وحدها ، وماحاولات العقل الا لتبويب هذه المشاهدات وترتيبها بحيث تستقيم مع بعضها فى نظام واحد

* * *

هذا الجو الفكرى هو أصلح الاجواء على الاطلاق للنظرية السلوكية وهذه الفلسفة هى خير الفلسفات جميعاً لمثل هذه النظرية . فهى لاول وهلة تستقيم لمن يعيش فى مثل هذا الجو الفكرى ولمن يؤمن بمثل هذه الفلسفة . ومن هنا كان

أثر ديوى فى نشر السلوكية فى أميركا ، فهو الذى قد أعد لها هذا الجو وهو الذى استنبط الفلسفة العملية وروج لها وبذا أعد الافكار لقبول السلوكية عند ظهورها وكان من شأن هذه الحياة الفكرية انها شجعت وطسون على ان يقف هذا الموقف ، ويستوثق من نظريته كل الاستيثاق لانه فى الواقع يدعو أولا الى التجربة والاختبار والى عدم الركون الى شىء فى عالم النفس الا ماثبت منه بالتجربة والاختبار . وهو يدعو ثانياً الى انكار كل شىء لم يثبت بالتجربة أو لايمكن اجراء التجارب عليه

فى الشق الأول يستقيم منطق وطسون مع الفلسفة الغالبة فى أميركا . فهو لايدعو الاميركيين الى شىء غريب عنهم لم يكن لهم به عهد ، بل لايعدو عن دعوتهم لان يكونوا أميركيى النزعة فى التفكير . وهذا بالطبع سهل ميسور لايكلف النفوس الا وسعها ، ولا يعدو فيه ان يكون معبراً عن خوالج الاميركيين ، ومن هنا ذيوع نظريته السلوكية وانتشارها بشكل جدى ، وأما الشق الثانى من نظرية واطسون فهو الحفرة التى تتردى فيها نظريته ، أو هو السلاح الذى يقدمه للمفكرين غير متعمد حتى يعينهم على القضاء على هذه النظرية السلوكية . وبعبارة أخرى ان النظرية السلوكية لاغبار عليها كطريقة علمية فحسب ، واما انها فلسفة عامة أو نظرية شاملة للكون فهذا ماينازعه فيه جمهرة الفلاسفة وعلماء النفس . وفى مقدمة من ينازعونه علماء نيويورك ـ اولئك الذين عضدوا هذه النظرية بتجاربهم وبفلسفاتهم

الفصل الرابع

فى الفصول السابقة شرحنا باختصار كثير المقدمات التى انبنت عليها النظرية السلوكية ، وفى هذا الفصل سوف نتناول النظرية نفسها بالتقدير والنقد لندل على مواضع قوتها ومكان الضعف فيها

قلنا فيما سبق ان للعلم طريقتين يستعين بهما أو باحداهما للوصول الى الحقائق التى يسعى وراءها . والطريقة الاولى هى طريقة المشاهدة وهذه أعم الاثنين جميعاً وتستعمل فى جميع العلوم الطبيعية كالكيمياء والطبيعة والفلك وعلم طبقات الارض والعلوم البحرية والمعادن والغابات وعلم النبات وخلاف هذه كثير . وأما الطريقة الثانية فهى الاستبطان (Introspection) وهى خاصة بالعلوم الاجتماعية كعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد . وهذا لايمنع بالطبع ان العلوم الاجتماعية أيضاً تستخدم المشاهدة والتجربة كباقى العلوم الطبيعية ولكن الاستبطان خاص بالعلوم الاجتماعية دون سواها

والاستبطان قائم على أن العلماء يبحثون فى مشاعرهم الخاصة وحالات نفوسهم التى تلازمهم فى بعض الاحوال المختلفة . وتحليل عواطفهم ووجدانهم ومنازع نفوسهم ومايتكبدونه فى سبيل هذه المنازع ثم يبوبون هـــذه جميعاً وينظمونها ويقيمون لكل ظاهرة منها حدودها . ليس هذا فقط ولكنهم يتصلون بالآخرين مستوضحين عن حالاتهم النفسية ومايحسه الغير ويشعر به أو يدفعه للعمل والنشاط ويجمعون منهم الشىء الكثير ثم يقيسون هذه الظواهر على مايجدونه من نفوسهم هم . وبعد هذا يستخرجون القوانين العامة من هذه الظواهر جميعاً ويقدمونها على أنها حقائق ذاتية داخلية يصح أن يأخذ بها العلم ويبحثها لأنها تنتاب النفوس العادية . وبالطبع لايهم سواء أكانت هذه الظواهر النفسية لها وجود موضوعى (Objective) مستقل عن الشخصية أم ليس لها وجود مستقل كأن تكون ذاتية داخلية (Subjective) . والفرق بين الذاتية والموضوعية دقيق ومتصل بالفلسفة

أشد اتصال ولسنا ننوى أن نبحث فيه لأنه يطوح بنا فى مناح من الكلام تخرج بنا عن حد علم النفس . وانما نحب ان نضرب مثلا أو اثنين حتى نبين الفرق بينهما بشكل أكثر وضوحاً وأقرب الى الافهام : من المعلوم أننا لاندرى للاشياء وجوداً إلا عن سبيل الحواس ، فالانسان منا فى الواقع لايدرى سواء أكان هذا الجسم موجوداً أم غير موجود إلا عن طريق النظر واللمس والسمع الى آخره ، وحتى هذه الظواهر التى تصل الينا لايصح ان ندعوها جسماً لأنها ليست كذلك . فماهى إلا احساسات مستقلة عن الجسم كل الاستقلال ، وماهى إلا من صنع نفوسنا . فعندما ترى أمامك رجلا وتسمعه وتلمسه فشعورك بوجوده لا يمت بصلة اليه لأنه مايزال واقفاً بعيداً عنك مستقلا عن نفسك الداخلية ، وكل ماتعلمه عنه هو بضعة احساسات دقيقة رتبها جهازك النفسى وحاكها كما أراد حسب استعداداته وطاقته

ولنضرب مثلا آخر يكون أكثر توضيحاً لهذه النقطة . انسان واقف بجانب ناقوس كبير يدق ويسمع هذا الانسان صوته ، فما هو هذا الصوت ؟ هل الصوت شىء موجود فى الطبيعة مستقل عن الانسان ؟ كلا فان الصوت هو عبارة عن اهتزازات سريعة لجسم ما ، وهذه الاهتزازات نقلتها الينا حواسنا على أنها صوت ، ولكن هذه الاهتزازات نفسها لو زادت سرعتها وقصرت موجتها قليلا أو كثيراً لما سمعناها مطلقاً ولانقلبت الى حرارة تكتوى بها أيدينا فما لو لمسنا هذا الناقوس الذى نتحدث عنه . والفرق بين الصوت والحرارة ليس شيئاً سوى ان الصوت ينتج من اهتزاز الناقوس كله وأما الحرارة فتنتج من اهتزاز ذراته . فاذا زادت الاهتزازات أيضا وقصرت موجتها لايعود الناقوس يحدث صوتا ولا يعود ساخنا فقط وانما يصبح منيراً كأنه مصباح قوى . كل هذا يحدث مع أننا لم نغير شيئا من طبيعة الناقوس ولا من اهتزازاته ، والواقع ان الاختلاف فى هذه الحالة لاينجم عن هذا الجسم وانما ينجم عن حواسنا التى ركبت فينا ، فانها هى دون غيرها التى تسمى بعض الاهتزازات صوتا وبعضها حرارة وبعضها نوراً والواقع أنها اهتزازات لا أكثر ولا أقل

هاتان هما اذن الطريقتان — طريقة المشاهدة والدراسة الموضوعية وطريقة الاستبطان والدراسة الذاتية الداخلية . والسلوكية تصر على أن تغفل الذاتية كل

الاغفال ولا تريد أن تستخدم فى علم النفس إلا الطريقة الموضوعية . وبمعنى آخر لانريد أن تسأل الموضوع المراد دراسته عما يحس أو يشعر به ، لأنها لاتثق بشعوره أو باحساسه ، وانما تعتمد فقط على ان تضع الموضوع أمامها — انساناً كان أم حيواناً — وتشاهد تصرفاته فى الاحوال المختلفة المتباينة . ثم تدون هذه المشاهدات وتبوبها وتستخرج منها قوانين عامة . وتزعم أن كل طريقة اخرى عدا هذه خاطئة ومغلوطة ومضللة ولا يصح الوثوق بنتائجها . والسلوكية تنحى باللائمة على كل العلماء الذين يستخدمون طريقة بخلاف طريقتها ، وتدعوهم دجالين ومشعوذين وخاضعين للاوهام والخرافات ، والفرق بين السلوكيين وغيرهم ينحصر فى الواقع فى هذه النقطة ، وهى ان الاولين هم اصحاب طريقة واحدة — طريقة المشاهدة وأما الآخرون فانهم يؤمنون بالطريقتين جميعا

هذا هو جوهر الخلاف بين المدرستين ، وهو فى الواقع يدل على أن وطسون والسلوكيين من خلفه قوم متعصبون ضيقوا أفق العقل متعسفون لأنهم يتغاضون عن الحقائق بشكل يجعلهم غير صالحين للانتاج العلمى ويجعلهم حريين بأن يقصوا من حظيرة العلماء الموثوق بهم — يكون هذا شأنهم لعدة أسباب نذكر منها البعض على سبيل التمثيل لاغير

لايثق وطسون بالموضوع المراد دراسته (الانسان مثلا) ولا يحب منه أن يشرح مايدور بنفسه زعما منه أن هذه الطريقة هى طريقة ذاتية لايوثق بها . حسن رضينا واتفقنا — انما نسأل هذا السؤال : — كيف يتسنى لنا اذن أن ندرس الانسان ؟ يقول وطسون شاهد تصرفاته . راقبه ودون ماترى فقط . هذه هى الطريقة الموثوق بها ، والتى لايتسرب اليها شىء من الذاتية (Subjectivity) المبنية على الشعور والاحساس ، وهذان يخضعان لمؤثرات كثيرة وعوامل مختلفة لاتجعلهما صالحين بحال من الاحوال لبناء الحقائق العلمية عليهما ، واستنباط القواعد العامة التى يصح ان نطبقها فى جميع الحالات

وهنا لايستقيم موقف وطسون مع المنطق والعقل ، لأن القارىء يذكر أننا قلنا أننا لانستطيع ان نتصل بالاشياء إلا بواسطة حواسنا . أن وصفنا للاشياء هو فى الواقع وصف لشعورنا نحن ولما نحسه من هذه الاشياء . وأنه عندما

يتحدث الينا وطسون عن تصرفات انسان معين انما يتحدث الينا عما أحسه هو نفسه وشعر به وتخيل ان هذا الانسان يفعله ويعمله . فكأن وطسون يقول لنا « دعوا هذا الانسان ومايحس به ، واصغوا الى أنا لاقص عليكم ماأحس واشعر به أنا عن شعور هذا الانسان واحساسه . وبمعنى آخر لاتثقوا بشعوره واحساسه بما فى نفسه ولكن ثقوا بشعورى أنا وباحساسى بما يفعله هو » وهذا بالطبع وجه الخطأ لأنه اذا كانت الطريقة الذاتية خطأ ، فتكون خطأ عندما يستعملها وطسون وعندما يستعملها الانسان موضوع البحث على السواء . وأما اذا كانت صواباً فتكون كذلك فى الحالتين . ويكون اعود علينا واجدى للعلم نفسه ان نترك الانسان المراد دراسة نفسيته يشرح لنا احساسه وشعوره

هذا من الوجهة الفلسفية . وأما من الوجهة العمليـــة فالصعوبات كثيرة فى سبيل نظرية السلوكية منها ان السلوكيين فى مشاهداتهم لايتوصلون إلا الى الامور السطحية الظاهرة ، وأما ماكان منها متصلا بقرارات النفس الداخلية فلا سبيل لهم اليه . هم يرون الحركات والافعال ولكنهم لايستطيعون ان يتوصلوا الى الدوافع النفسية والنوازع الداخلية التى بعثت بهذه الحركات وتلك الافعال . ولكى نزيد هذه النقطة وضوحا نروى الحادثة الآتية وهى تدور حول هذه النظرية ، وليس بطلها أحد سوى وطسون نفسه وماكدوجال أكبر أعداء النظرية السلوكية حدث أن دعت احدى جمعيات نيويورك وطسون وماكدوجال ليتناظرا فى السلوكية ، وكان من الطبيعى ان يدافع وطسون عنها وان يهاجمها ما كدوجال ويبين اخطاءها الملازمة لها . قال ماكدوجال

« تصر ياسيدى على أن ترفض كل شىء فى علم النفس ، وتصر على أن تضع هذا الشىء خارج دائرة هذا العلم مالم تشاهده بنفسك ، فكل شىء تراه أو تشاهده وتقيسه وتتناوله بادواتك العلمية هذا تقبله وتجرى تجاربك عليه . وأما مالا تراه بعينك وما لايقع تحت حسك فهذا ترفضه وتزعم ان لاصلة له البتة بعلم النفس هذا حسن . فلنقل اذن انك تتناول ابرة فى يمينك وتغرزها فى يدى ثم تشاهد استجاباتى لهذا المؤثر البغيض وتدون هذه المشاهدات . فعند ماتغرزها فى يدى أسحب يدى بالطبع وباسرع مايمكن فتشرع تتحدث عن الأرجاع (الافعال

العكسية reflex action وتقول هذا الموضوع (أى ماكدوجال) سحب يده بسرعة عندما وخزته بالابرة ، ثم تجرب هذه العملية فى الوف من الأيدى — ايدى رجال واطفال وسيدات وبنات وارجل الحيوانات أيضاً — وعندما تجد ان ليس لهذه القاعدة شذوذاً ، وان كل من وخزت بالابرة يسحب يده بسرعة تقول هذه قاعدة علمية عامة لاشذوذ فيها وتشرع تضع هذا القانون العام « كل من وخز بابرة يسحب يده بسرعة ، ثم تكتفى بهذا ولا تزيد عليه حرفاً ، واذا قلت لك انى احسست بالم عندما وخزت يدى بالابرة تقول هذا لايهمنى ولا يقدم أو يؤخر فى الموضوع . لان هذا الأحساس الذى تزعم ان تقصه على لايمكن أن يدخل فى حساب العلم الذى أعمل باسمه . فهذا العلم فى الواقع لايعتمد على ماتحسه أو تشعر به ولا يجب أن يقيم له وزناً ، وكل مايعنى به هو مايشاهده من تصرفاتك فى حال بعينها — ذلك لانه علم موضوعى Objective ويصر على ان يظل كذلك

« تتغافل عن أحساسى وشعورى ياسيدى ولا تريد أن تسمع منى حرفاً أو تسمح لى بأن أعينك فى مهمتك هذه برواية ماقد يكون خفى عليك وما قد يكون من المستحيل ان تشاهده انت أو تعرفه من غير ان اخبرك به ، ومع كل ذلك ياسيدى فلنتسامح معك ولنقل ان هذا حسن أيضاً . ولكن ماذا يكون رأيك . فيما لو تركت يدى حيث هى ولم اسحبها ؟ ماذا يكون شأنك وشأن العلم الذى تعمل باسمه لو وخزت يدى فوجدتنى أقف جامداً فى مكانى مبتسما لاأبدى حراكا كأن الامر لايعنينى ؟ ماذا تكون قيمة مشاهداتك من الوجهة العلمية اذا زعمت ان هذا الموضوع (ماكدوجال أيضاً) لا ينطبق عليه قانونك العام الذى اكتشفته على طريقتك العلمية ؟ ماذا تفعل فى هذه الحالة التى هدمت قانونك العام هذا وأذرته مع الرياح وذهبت بآثاره . وقوضت نظريتك من أساسها ؟ لاشىء ياسيدى لاتستطيع أن تفتح فاك ، وما يبقى عليك الا ان تضرب بهذا القانون عرض الافق وتسلم مع المتشككين بأنه قانون ليس علميا ولا يوثق به »

والواقع ان وطسون لايستطيع الا ان يفعل هذا ويطعن هذا القانون فى الصميم . لا يجد مندوحة عن هذا سوى ان يسأل الموضوع ويستوضحه الامر ويصغى اليه وهو يقص عليه أحساسه وشعوره ، ويستقبل هذا الاحساس وذاك الشعور

١٤٤٣

على ان لهما قيمة حقيقية فى الامر وعلى انهما مما لايستغنى عنهما فى علم النفس ، وبعبارة اخرى نجد مرة ثانية أن السلوكية لا يمكنها ان تغفل حساب الطريقة الاخرى — طريقة الاستبطان — لابل يجب أن تستخدمها وتقبل على استغلالها كما يقبل باقى علماء النفس

وجدنا اذن أن وطسون يستبطن عندما يصف لنا تصرفات انسان شاهده . ويستعمل هذه الطريقة لأننا لم نشاهد تصرفات الموضوع كما شاهدها وطسون . فيجب ان نثق بشعور وطسون واحساسه عند مايقص علينا تصرفات الموضوع . هذا من جهة . وأما من الجهة الاخرى فاننا قد وجدنا أيضا ان قانون السلوكية الاول والاساسى وهو مراقبة السلوك فقط لاغير — هذا القانون لايمكن أن يجد سنداً من التجربة والمشاهـــدة وحدها . بل يتحتم عليه — لكى يصير قانوناً عاماً موثوقاً به — ان يرتكز على شعور الموضوع المراد دراسته وعلى احساسه . وأنه لا مندوحة له عن أن يصغى للموضوع ويأخذ بكلامه . قبل أن تفعل السلوكية هذا الامر لايمكن أن يكون لقوانينها القيمة العلمية التى تحب ان تدعيها لنفسها . والتى تحاول ان تنفيها عن كل طريقة اخرى وخصوصا طريقة الاستبطان

واذن فالطريقتان لازمتان لعلم النفس على الخصوص وللعلوم الاجتماعية على العموم . وكل ماتقول به السلوكية بخلاف هذا هراء فى هراء ، ولا يجب ان يقام له وزن فى الدوائر العلمية . لان مصيبة السلوكية انها متعنتة متعسفة لا تستطيع ان ترى وجهى الشىء الواحد فى نفس الوقت ، فهى تصر ان تتعامى عن احد وجهيه ، ثم تريد العالم على ان يتعامى مثلها

وهناك الناحية الفلسفية للنظرية السلوكية . فقد تورطت فى مغامرات فلسفية بشكل استجلب عليها النقد المرير وجعل الاساسات التى ترتكز عليها واهية ، لابل ذهبت فى تعسفها الى اكثر من هذا . وأخذت تنكر الدين والعقل والنفس والفلسفة والتاريخ وعلم الاقتصاد الى آخر هذه القائمة

النظرية السلوكية لاتثق بشىء سوى بعلمى الطبيعية والكيمياء . وأما كل شىء آخر ماعدا هذين فهو هراء لايستحق منها الالتفات

الفصل الخامس

خاتمة البحث

لقد بينا فى الفصل السابق مانؤاخذ النظرية السلوكية عليه . وهو بالاختصار ان هـــذه النظرية تدعو الى طريقة واحدة لاغير — تدعو الى مشاهدة سلوك الانسان أو الحيوان فى الظروف المختلفة ، وترفض ماعداهذا ، فكل ماإستعصى على المشاهدة المادية من سلوك الحيوان أو الانسان ترفض أن تبحث فيه بأى وجه من الوجوه ، لابل تنبذه ، وتدعوه تدجيلا وخرافة وشعوذة . كان الأمر يهون علينا نوعا ما لو أن السلوكية كانت تدعو الى التريث والنعام الفكر فى الأمور النفسية التى لاتقع تحت حس الباحث النفسى ومشاهدته ، وكنا نستطيع ان نجد لها عذراً فيما لو فعلت هذا بذاته من غير أن تزيد عليه وتمعن فى الاعنات والارهاق ، ولكنها لاتفعل ، بل تتعسف وتقطع برأى ، وتنكر ظاهرة وجدنا فيما سبق أنها ضرورية لازمة لكل باحث نفسى وللسلوكيين أيضاً

مالا نشاهده لايدخل فى علم النفس — هكذا تقول السلوكية — ونحن لانستطيع ان نشاهد سوى سلوك الانسان ، واذن فسلوك الانسان هو موضوع علم النفس لاأكثر ولا أقل

موقفها أزاء العقل والفكر

ولكن ماقولكم فى العقل ؟ تجيب السلوكية عن هذا قائلة « ماذا ؟ لاعقل هنالك ولايحزنون . هذا تدجيل وشعوذة ، ليس لهذا الاصطلاح معنى على الاطلاق. ان هو الا تصورات وأوهام ميتافيزيقية انحدرت من الفلسفة الى علم النفس انحدارا . الا لعنة الله على الفلسفة ، انها أصل كل بلاء ، ماأجرأها على الواقع وعلى الظواهر الطبيعية ترتب فيها وتبوب وتخلق مايروقها فى عالم الأشياء من غير حسيب أو رقيب ، والعقل هذا من اختراعها لاغير »

حسن . واذن مارأيك ايتها السلوكية فى التفكير ؟ بالطبع انت لاتنكرين

هذه الظاهرة لانها تفقأ عين كل مكابر . ليس من شك أن بعض الناس على الاقل يفكرون ! وان كان كثيرون -- ومن ضمنهم علماء أعلام أيضاً يعتقدون ان كل الناس يفكرون ، وان كثيراً من الحيوانات العليا تفكر ، لا بل ان كل الاحياء تفعل ذلك . ليس هذا فقط ولكن البعض ومنهم علماء أيضاً -- يعتقدون ان الذرات -- لا بل الكهارب أو جواهر المادة الدقيقة تفكر . ذلك لانها تريد وتتصرف تصرفا يدل على الحرية وعدم التقيد فى أحيان كثيرة . ومع ذلك لاداعى للدخول فى أمثال هذه المناقشات العقيمة ، فكل مانريده من السلوكية هو ان تجيب عن هذا السؤال « كيف نعلل التفكير اذا كان العقل خرافة كما تقول ؟ »

تقول السلوكية ان التفكير ليس من العقل لان هذا لاوجود له . ولكى نفهم طبيعة الفكر يجب ان نلجأ الى المشاهدة كما بينا . وليس من شك فى ان المشاهدة تدلنا على ان موضع التفكير هو فى المخ . اى فى المادة التى توجد عادة داخل الجمجمة وبالمشاهدة أيضاً نرى انه يصحب التفكير حتما حركات سريعة منتظمة فى ذرات المخ ، ولن نجد لهذه القاعدة شذوذاً ، ومتى كان الأمر كذلك فما تدعونه انتم عقلا ادعوه انا سلوكا والعقل لا تستطيعون ان تبرهنوا على وجوده الا بالسفسطة والكلام الفارغ . وأما حركات الذرات فهذا ما أستطيع أن أبرهن عليه بالواقع المحسوس . وبما لايمكن لانسان يملك حواسه ان يكابر فيه . ليس هذا فقط ولكن هنالك أيضاً ظاهرة تصحب التفكير فى كل الحالات الأخرى ، ذلك أن الأوتار الصوتية الموجودة فى حلق الانسان تتحرك هى الاخرى بشكل يستطيع أى انسان أن يشاهدها ويستطيع الانسان نفسه ان يحسها متى وضع أصبعه على هذه الأوتار من الخارج وعلى هذا نحن نؤمن ان التفكير هو كلام خفى ينقصه الهواء حتى يسمع . هذا فصل الخطاب عندنا . وأما أنتم فماذا تستطيعون ان تقولوا سوى ان تزعموا غير معتمدين على أساس بأن للانسان عقلا وان للحيوان عقلا . أما ماهو هذا العقل فانتم عاجزون ولا تستطيعون ان تجيبوا جواباً ؟ »

وعلى هذا القياس توغل النظرية السلوكية فى انكار معظم الظواهر الاخرى . فالواعية واللاوعية أى الشعور واللاشعور (Conscious and unconscious)

لاوجود لها الا فى مخيلة المغفلين أمثال ادلر ويونج وماجد وجال ، وأماالسلوكية فهى من هذا التدجيل براء . وماذا تريدون أيضاً ؟ العاطفة ؟ هذه نتيجة لحركات بعض الغدد ومفرزاتها ، وهذه أيضا يمكن مشاهدتها . والذاكرة ؟ هذه أيضا خرافة لاوجود لها على الاطلاق . والغريزة كلام فارغ لم نستطع ان نتوصل الى اثبات شيء منها بالمشاهدة . ثم ماذا أيضا ! الدين والتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد والانثروبولوجيا كل هذه وغيرها كثير كلام فارغ ومضاربات ميتافيزيقية أوجدتها الفلسفة الملعونة ، والحق ان الفلسفة هى الشيطان الرجيم الذى أغوى الانسان وأوقعه فى هذا الشرك ، ولسنا نجد من كل هذه مايستحق الاحترام سوى العلوم الطبيعية والكيماوية . .

يرى القارىء من كل هذا ان السلوكية لم تعد طريقة علمية فحسب ، بل تصر على ان تصير فلسفة مادية لها رأى معلوم فى الكون بأجمعه . لم تعد علما متواضعا يعرف لنفسه حدودها كباقى العلوم ولكنها تريد ان تقيم نفسها للحكم على الكون بأجمعه ، وعلى ظواهره المتعددة المتباينة ، تريد ان تجمع علوم الارض تحت جناحها وتحكم لهذا بالبقاء وعلى ذاك بالفناء . ونحن لسنا نفهم العلوم على هذه الكيفية أو بهذا الوضع ، وانما نعلم ان لكل علم دائرة محدودة يعمل فيها . حقا ان هوامش هذه الدوائر متلامسة ولكن منطقة الحياد هذه معترف بها من جميع العلوم على السواء ، وكل منها تحترم منطقة الاخرى وتتعاون معها على هامش المنطقة ، وليس هذا شأن السلوكية ، فانها لاتعرف لنفسها حدوداً ولا تعترف بوجود العلوم الاخرى أصلا ، وحتى مالا يدخل فى باب العلوم مثل الدين والفلسفة والاخلاق Ethics والفن Esthetics لاينجو من تعسفها . ومحصل القول ان السلوكية لاتكتفى بأن تكون علما وانما تريد ان تتفلسف

كنا بسبيل درس علم النفس فى كلية المعلمين بجامعة ييل ، وكنا نبحث فيما تزعمه السلوكية من ان التفكير ليس شيئا سوى حركات الأوتار الصوتية فى الحلقوم ، وأراد الاستاذ مارك ماى Mark May ان يتهكم على السلوكية ويتفكه بنقدها نقداً لاذعا فقال « تريدنا السلوكية على أن نؤمن معها بأن التفكير هو حركات الأوتار الصوتية لان هذه الحركات تصحب التفكير دائما أبداً . حسنا ، ولكنى

أنا لاأفكر من غير أن أحرك أصبع قدمى ، فى حالتى أنا على الأقل أستطيع ان أزعم أن التفكير ان هو الا حركات أصابع القدم ، اليس كذلك ياسلوكية ؟ »

كنت أقرأ كتاباً لبرجسن الفيلسوف الفرنسى لاأذكر اسمه الآن ، ومن ضمن ماتناوله هذا الفيلسوف مسألة التفكير فقال هذا الكلام أو ماهو فى معناه : لايمكن لنا ان نسلم ان العقل هو نتيجة لحركات ذرات المخ . هذه النظرية المادية لاتجد مايسندها من ظواهر الكون . حقاً نستطيع ان نسلم بأن الذرات المخية تتحرك عند مايؤدى العقل وظيفته ، كما ان الهضم يؤدى وظيفته بحركات فى القنوات الهضمية . ومن يزعم ان حركات ذرات المخ هى الاصل فى العقل شأنه شأن من يزعم ان المعدة الاصل فى الهضم وانه لولا المعدة لما كان هنالك هضم ، وهـــذا الزعم الأخير لايستقيم مع حقائق الحياة لان كثيراً من الاحياء تهضم الطعام من غير أن يكون لها معدة أصلا . ويجدر بنا ان نزعم ان المخ هو اداة العقل للتفكير . كما ان المعدة هى اداة الهضم للحياة . وليس من المستبعد انه لو لم يكن المخ موجوداً قط لاوجد العقل لنفسه أداة أخرى يستعملها فى التفكير

نحن نميل لان نأخذ بنظرية برجسن وباقى الفلاسفة الذين ينحون منحاه فى التفكير فنظرية الحياة Vitalism اقرب الى المنطق والتفكير السليم من النظرية المادية التى تريد المسلكية ان تقنع العالم بصحتها . والحق اننا لا نسلم للسلوكية بالمركز الذى تحب ان تدعيه لنفسها ولا يطاوعنا عقلنا على ان نقبلها كنظام فلسفى للكون يتناول كل ما فيه من علوم وفلسفات وانما نقبلها فقط على انها طريقة علمية لا غير ، وبعبارة اخرى نتفق مع جارسن Winfred Ernest Garrison الاستاذ بجامعة شيكاغو على ان هذه النظرية لا يجب ان تدعى سلوكية بل علم السلوك (Not Behaviorism but Behaviorology) فهى طريقة لعلم النفس وليست علم نفس مستقل . فبالاحرى لايمكن ان تكون فلسفة

اظنه واضح الآن بأن السلوكية ضلت السبيل ، وان اخطاءها التى مرت بنا فى هذا الفصل كافية لان تحملنا على الاحتراس منها فى مواضع كثيرة فلا نذهب وراءها الى اقصى ما تريد ان تذهب بل يجب ان نحرص ونتشدد فى السير خلفها والنهج على

منوالها ، ونأخذ كل ما تقدمه لنا بروية واناة وبتحميص كثير

أثرها فى البحث النفسى فى التربية

بعد ان وضح هذا ، نحب ان ندل على فضائل هذه النظرية ، وعلى الخدمات الجليلة التى قامت بها العلم النفس ، وكيف انها فى الواقع كانت ثورة عنيفة على الطرائق القديمة البالية التى اصر علم النفس على استخدامها فيما مضى ، تلك الطرائق التى كانت اقرب الى الرجم بالغيب والخيال منها الى الطريقة العلمية التى تعتمد على المشاهدة والاختبار

وأول هذه الخدمات اصرار السلوكية على اجراء التجارب فى المعامل ومشاهدة سلوك الانسان ، وتدوين وجوه هذا السلوك من غير ان نلجأ الى الفروض والاحتمالات والاستبطان فقط . ذلك لان الاستبطان يتناول شعور الانسان الداخلى ، وخوالج نفسه التى لا يمكن لعالم من العلماء ان يتوصل اليها بالمشاهدة وبالتجربة ، ثم ان النتائج التى نصل اليها بالالتجاء الى الشعور الداخلى للانسان لا يمكن ان تعمم كباقى القوانين العلمية فما اشعر به انا فى ظرف بعينه خاص بى انا ولا يمكن لانسان ان يشعر بمثله ، وليس هذا فقط بل لا يستطيع العالم ان يتوصل الى هذا الشعور — شعورى انا وشعور غيرى — من غير ان نخبره نحن به ، وقد لا نكون نحن من علماء النفس فلا نستطيع ان نعبر عن هذه الخوالج النفسية بطريقة وثيقة ، ليس هذا فقط ولكنه يتعذر على اى عالم ان يجرى تجاربه فى هذه . فلا يستطيع ان يطبق مايراه فينا على مايراه فى غيرنا لانه لا يرى هذا ولا ذاك . ومن ثم لا يمكنه ان يستخرج من هذا الشعور قانوناً عاما يطبق فى جميع الحالات ، وليس يخفى بالطبع ان قيمة القوانين العلمية هو فى امكان تطبيقها فى جميع الحالات

من هذه الجهة اذن نحن نعطف على السلوكية ، وندعو الى الاخذ بطريقتها خدمة لعلم النفس . ونحن لا نرفض الاستبطان رفضاً باتا قاطعا كما تفعل السلوكية ، فهذا فى راينا من المستحيلات كما بينا فى هذا الفصل وفى الفصول السابقة ، ولكننا ندعو الى استخدام طريقة السلوكية الى اقصى مانستطيع استخدامها ، ونستخدمها بغير هوادة او لين ثم نلجأ الى الاستبطان ، أو الى استيضاح الانسان موضوع البحث عن شعوره عندما يتعذر علينا الالتجاء الى السلوكية والوصول عن طريقها الى الحقائق التى نريد ، ثم

نؤمن ايضا بأن هنالك حالات كثيرة لا تستطيع السلوكية ان تصل اليها

هذه اولى الخدمات التى تؤديها السلوكية للعلم ، وهناك خدمة اخرى اجل واثبر فى نظرنا، لابل نستطيع ان نزعم انه لولم تكن السلوكية قد ادت غير هذه الخدمة لكفاها فخراً ولحق لها ان تولى الفضل الذى تستحقه والذى نريد ان نوليها اياه ،واليك التفصيل

كان من شأن الطريقة القديمة فى علم النفس انها تأخذ الانسان على انه كائن حى يولد الى هذه الدنيا مستكمل الشروط مزودا بكل العناصر التى تصير منه انسانا فاضلا او شريراً كما قدر له ان يكون وبحسب الاستعدادات التى ورثها من ابويه وجدوده ، فالطبيعة قوية قاهرة ولا يستطاع تغييرها أو تبديلها ، وكل ما يستطيع المربون ان يفعلوه هو ان يلجموا هذا الانسان ويقيدوه بالقوانين المدنية والعرفية التى تمنع طبيعته عن الطغيان والفوضى هذا لان المولود مسلح بكل انواع الغرائز الضارة من حب السيطرة الى حب التملك الى حب الذات ، وكل هذه لاتستقيم مع النظم الاجتماعية ، وكل ما تستطيع التربية ان تفعله هو ان تلجم هذه الغرائز وتكبتها بالتخويف تارة وبالارهاب تارة اخرى حتى لا تطغى وتحدث الفوضى فى هذا المجتمع

كان هذا هو الشأن فى علم النفس الى ان اتت السلوكية بنظريتها الجريئة التى وجدت لها سنداً من التجربة والاختبار ، ونظريتها هذه قائمة على انه يستطاع التحكم فى تصرفات الانسان عن طريق البيئة ، فهو لم يعد يولد مجهزاً بكل عناصر الاخلاق والشخصية . وانما يولد وله الاستعدادات التى قد تصنع منه رجلا فاضلا نافعا للجماعة . او شريراً لا يرتاح الى اقل من الحاق الضرر بهذه الجماعة ، وبعبارة اخرى نجد ان السلوكية وسيلة لضبط السلوك Method of Control يستطيع معها العالم النفسى ان يوجه الانسان الى الوجهة التى يريد . يقول وطسون «اعطنى اطفالا اصحاء سليمى البنية وأنا اصنع منهم الرجال الذين تريد ، استطيع ان اصنع من هؤلاء فلاسفة ،ورياضيين وعلماء ، ورجال ذوى اخلاق متينة ومجرمين اعداء للانسانية» لقد اعانتنا السلوكية وانقذتنا من الجبرية Determinism التى وضعتنا فيها النظرية القديمة ، ثم انها سلحتنا بالوسائل الناجعة لتربية الاطفال ، كل هذا فعلته لانها اظهرت فعل البيئة فى حياة الانسان ، هذا العامل الذى كدنا نغفله من حسابنا

انى اؤمن بالسلوكية كطريقة علمية وكوسيلة للتحكم فى السلوك ولكنى ارفضها كفلسفة وكنظرية عامة للكون

RR ۱۵۰۲۱۸۳

آخری درج شدہ تاریخ پر یہ کتاب مستعار
لی گئی تھی مقررہ مدت سے زیادہ رکھنے کی
صورت میں ایک آنہ یومیہ جرمانہ لیا جائے گا۔

کتب خانہ جامعہ عثمانیہ

۱۔ اراکین مجلس اعلیٰ، مجلس تعلیمی، مجالس تشریحات و نصابیات پانچ کتابیں ایک ماہ کے لیے [illegible] حاصل کر سکیں گے۔

۲۔ اساتذہ جامعہ عثمانیہ و کلیہ جات ملحقہ و اراکین دارالترجمہ دس کتابیں ایک ماہ کے لیے [illegible] حاصل کر سکیں گے۔

۳۔ طلبائے ایم اے [illegible] تین کتابیں، طلبائے بی اے، ایل ایل بی دو کتابیں [illegible] حاصل کر سکیں گے۔

۴۔ مدت مقررہ پر کتابیں واپس نہ ہونے پر [illegible] ایک آنہ یومیہ فی کتاب جرمانہ لیا جائے گا۔

۵۔ بشرط موقع کتابیں گھر پر جاری کی جا سکیں گی [illegible] بیرون کتب خانہ [illegible] کتاب کا لانا لازم ہے۔

۶۔ کتابیں گم یا خراب ہو جائیں تو [illegible] عائد ہوگی۔

۷۔ کتابوں پر کسی قسم کا نشان یا [illegible] نہ کیا جائے۔

۸۔ قلمی نسخے اور حوالے کی کتابیں جاری نہیں کی جا سکیں گی۔ فقط